

تبدأ حكايتنا التي نسردها اليوم بفتاة شابة لم تتم الثامنة عشر عامًا من عمرها بعد، وكانت تتحدث مع نفسها قائلة "أخيرًا وبعد تعب وطول انتظار خلصت الامتحانات، حقيقي كنت حاسة إني مش هعدي السنة دي، بسبب كل الضغط اللي كان عليا" ثم تنهدت وتابعت "بس الحمد لله، المهم اللي بعده... نفسي ألحق أدخل كلية الطب، دا حلمي من صغري، نفسي أبقى السبب في إنقاذ حياة حد وأرسم الفرحة في قلب أهله، مهما يحصل مش هزعل، كل اللي يجيبه ربنا خير، ومهما كانت النتيجة هو دا اللي ربنا أراده ليا أكيد"

انتهى حديثها مع نفسها حين وصلت إلى منزلها، وكانت حينها عائدة من آخر امتحان لها بسنوات الدراسة المدرسية، وقبل أن تفتح باب منزلها استنشقت نفسًا عميقًا وزفرته، علّ ذلك يعطيها قوة تحمل لما ستواجهه خلف ذلك الباب الذي يظهر كم أنه بسيط، ولكنكم لا تدرون كم العذاب النفسي الذي تتحمله الفتاة دون سبب يُذكر، وها هي تفتح الباب، وتواجه أول موجة:

- أهلاً بالأستاذة.

- أهلاً يا ماما.

قالتها وهي تغلق الباب خلفها؛ لتقول والدتها في حدة:

- أنت واقفة كدا لي! يلا أدخلي غيري، وتعالى أعلمي حاجة مفيدة، بدل ما انتي من غير فايذة كدا.

ترقرقت الدموع بأعينها، وهي تقول:

- حاضر.

وبمجرد أن دلفت غرفتها وأغلقت عليها الباب هبطت دمعة من عينها عنوة، جعلتها تزفر أنفاسها في حزن وتقول في مواساة لنفسها "دا العادي يعني، مش فاهمة زعلانة من إي؟ يعني كنت متوقعة أرجع الأقي ماما

وخداني بالحضن عشان خلصت الثانوية؟ أو تسألني عملت إي! زي ما
زمايلي بيحكولي، وزي ما بشوف قدام المدرسة ومن ورا الشاشات، قد إي
هما في نعمة مش حاسين بيها!"

قالتها في تهكم وحسرة باديين على وجهها المرهق والحزين، ومسحة
دموعها وقالت "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أما أتوضى وأصلي وأروح
أساعد ماما بسرعة، بدل ما تحصل مشكلة، النهاردة مفيش حاجة تقدر
تزعلني أبداً"

وارتدت الفتاة ملابس البيت، وتوضأت وصلت، وذهبت لتساعد والدتها
في أشياء عدة إلى أن أتى والدها بعد ساعتين تقريباً من عمله، كان والدها
رجل بسيط يعمل على سيارة أجرة تسمى (ميكروباص) وكان يأتي كل يوم
الساعة الرابعة عصرًا للغداء ثم يعود لعمله من جديد، وكان أحياناً يتصل
على زوجته لترسل أحدهم بالغذاء ولا يأتي إلا مساءً، أو يأتي الرابعة
عصرًا ولا يذهب لعمله مرة أخرى.

حين أتى الأب بدأت سارة تُجهز طاولة الطعام فوراً، وكانوا معتادون
على الأكل على صينية كما يقولون، وحين انتهت من رص الطعام ووضعها
بالصالة، كان والدها قد انتهى من نداء إخوانها الصغار أحمد ومحمد كانا
توأم في الصف الرابع الابتدائي وكانا لا يبرحان الشارع طوال اليوم...
تجمع الجميع حول الطعام البسيط، كيوم كأي يوم هكذا ظنت سارة،
ولكن هل كان هكذا حقاً!

في منتصف تناولهم الغداء قال الأب من بين مضغاته:

- سارة، النهاردة كان آخر امتحان ليكي مش صح؟

تفاجأت سارة من سؤال أبيها، وفي الحقيقة سُررت كثيراً، فهي لم تتوقع
أن يهتم والدها هو أيضاً، وقد بدا ذلك على صوتها وهي تقول:

- أيوة يا بابا، الحمد لله.

قال الأب وهو يأخذ قطعة مخلل من الطبق، وفي نبرة عادية:

- كويس، في ضيوف بكرة مهمين جدًا وعايزك تلبسي أحسن حاجة عندك.

صدمها ما قاله والدها، وأدركت ما يقصده، وعلى الفور اجتمعت الأدمع بعينيها متأهبة للسقوط، وكأنها سلاحها الوحيد في ذلك العالم، ولكنها كبحتها، وتساءلت وكأنها لا تفهم شيء:

- ضيوف مين يا بابا؟

- بكرة هتعرفي.

صمنت سارة ولم تعقب، ولم تبدِ حزنها، ولكنها لم تستطع أن تخفي قلقها، ومر اليوم وهي تدعو الله ألا يكون ما شعرت به حقًا...

باليوم التالي:

كان قلب سارة كاد يخرج من مكانه، وهي تحاول ألا تصدق حدثها فيما سيفعله والدها، فرغم أنها لم تقال أمامها صريحة فهي ترى تجهيزات والدتها، واتصال والدها كل قليل على غير المعتاد، حتى أنه أتى مبكرًا من عمله على غير عادته.

عندما عاد والدها من العمل ولأول مرة منذ زمن بعيد يقول لها بصوتٍ

حان:

- ادخلي يا سارة أوضتك نامي لك ساعتين، وبعديها اصحي عشان تجهزي...

ذلك جعل الشك يتزايد أكثر في قلبها، ولكنها قالت بانصياع تام:
- حاضر.

لم تكن سارة ضعيفة الشخصية، ولكنها تعلم والديها جيدًا، سيحدث ما يريدون، وإن اعترضت، وإن عاندت، وإن بكت دمًا أمامهم، لذلك ليس أمامها سوى أن تتشبث بالأمل طالما لم تُقال صريحة أمامها...

علمت سارة أن الضيوف قادمون الساعة الخامسة؛ لذلك كانت قد ارتدت ملابسها وتجهزت كما أخبرها والدها، وحين دق الباب توترت الأجواء، وناداهما والدها إلى المطبخ وحذرها بنبرة حادة بالألا تخرج إلا عندما يطلبها بالعصير، حينها تأكدت من كل شيء وأبى الدمع أن يظل صامتًا وأطلقت سلاحها الوحيد وكل حيلتها، وقالت برجاء بالغ:

- بابا أرجوك مش دلوقتي، مش دلوقتي أرجوك...

وبدأت شهقاتها تعلو، قال والدها ينهرها بجمود:

- أسكتي خالص، أنت متعرفيش حاجة فتسكتي...

ثم أرفف محذرًا:

- أوعي يا سارة متسمعيش الكلام... لما أنه اطلعي...

وخرج والدها لضيوفه الذين تبينت نيتهم، لم تدرِ كم من الوقت مر وهي بالمطبخ تبكي حالها، ولا تستطيع التوقف، وكانت من بين شهقاتها تقول "يارب، دا كابوس خرجني منه يارب، يارب حلمي...".

إلى أن ناداها والدها، وكفكفت هي دموعها، وأمسكت بالعصير
وخرجت، قررت أن تبدو متجهمة، ولن تبتسم، وإن حدث وتركوهما
بمفردهما، ستكرهه فيها، هذه هي حيلتها الوحيدة...

حينما دلفت إلى مجلسهم رأت والداها يجلسان على اليمين، ورجلين
وامرأة أخرى على اليسار، وبوجه ناظر على الأرض، ومقتضب، قدمت
العصير وجلست على الكرسي الفارغ.

لم ترَ ولم تلمح وجه أي من الضيوف الغرباء، لم يههما ذلك من الأساس،
إلى أن تكلم صوت غريب ليس بوالدها وليس بصوت شاب، قائلاً:

- بما إن عروستنا جات، فندخل في الموضوع على طول، سبب زيارتنا
معروف، بس بقوله تاني...

وتابع وهو مبتسم:

- احنا جايين النهاردة عشان نطلب ايد بنتكم سارة لابننا مروان، وأكد
زي ما وضحنا قبل كدا الظروف، ولي بالضبط طالبين ايد عروستنا
المصون، وعرفتنا أنكم موافقين على كل الشروط، مش كدا ولا إي؟
وأتبعها الرجل بضحكة سمجة؛ ليقول والد سارة على الفور:

- أيوة طبعًا، دا شرف كبير جدًا لينا إننا نناسبكم...

كانت سارة تتابع الحديث وكانت ترتسم على ملامحها أمارات التعجب
مع كل جملة يقولها الرجل، وشعرت بوجود الكثير من الأشياء المخفية،
أي ظروف هذه؟ وما هي شروط الزواج؟ ولم لا تعلم شيء عن كل هذا
إلا الآن؟ ومع كل تلك الأشياء تأكدت بأنه هناك شيء غريب، ومخفي
عنها لم تَعه بعد.

ورغم كل ما هو حولها كانت تقول في قلبها "يارب لاء، يارب يكون
كل دا كذب، يارب بابا ميوافقش.."

وذهب الناس بعد ذلك اللقاء العجيب، ولم تسنح لها الفرصة لتجلس معه، وهذا لا يُنبئ لها بالخير، وهي تشعر أن جواب أحد أسئلتها هو...
لا تريد حتى أن تفكر في هذا، لذلك بمجرد أن ذهب الجميع عدت إلى غرفتها، تبكي بشدة وبداخلها وبقلبها حزن كبير وتلك الخاطرة لا تفارق عقلها "معقوله بابا يكون باعني!"

في منزل آخر:

كان يجري حديث بين رجلين أحدهما أشيب الرأس، يقول بصوت مميز:

- مقولتس رأيك يعني في العروسة!

طالعه الرجل باقتضاب وبوجه متجهم، متسائلاً:

- هي عندها كام سنة؟

- 18 إلا شهر.

تعجب الرجل ورفع حاجبيه قائلاً في غضب:

- بجد والله؟ أنت بتقول إي!

- في إي يا ابني؟

- يا عمي، أنت دلوقتي ودنتي أتقدم لواحدة مكملتس 18 سنة، وبتقول في

إي!

- بقولك إي، أنا عملت كل حاجة في الموضوع دا عشانك، ودي البنت

الوحيدة اللي وافقت على ظروفك، أنت عارف واحد بالظروف دي

مش سهل يلاقي عروسة، وأنت عارف كذا كويس، وبالنسبة لحوار

السن فأنتم مش هنتجوزوا غير لما تكمل 18 سنة.

- وانت بقى مصدق إنها موافقة؟

- وإي اللي يخليك تقول غير كذا؟

- طول ما احنا قاعدين مرفعتش عندها عن الأرض!

- عشان خجولة ومؤدبة.

- بجد والله؟

- بص يا ابني، فكر كويس، على ما صدقنا نلاقي لك عروسة، أنا عن نفسي شايفها مناسبة جدًا، وكلها في الأول والآخر سنة وهتطلقوا، وهترجع حياتك طبيعية تاني، عالعموم رَوِّح كدا وريح، وهستنى رأيك بkra.

وإلى هذا الحد انتهى الحديث بإماعة من الشاب الذي استعد للذهاب إلى منزله...

وكانت سارة في غرفتها، الصغيرة والتي لا يوجد بها سوى سرير صغير بنفس الحائط التي يوجد به الباب، ويقابله خزانة ملابس لا يوجد لها من نصيبها منها سوى رف واحد، وباقي الغرفة تحوي الأشياء القديمة، والأثاث المُخزن، فمنزلهم صغير يتكون من 3 غرف ضيقة وصالة صغيرة أيضًا، ومكان ضيق بالكاد يسمى مطبخ...

ولم تتوقف سارة عن البكاء بعد وكلما هدأت ثارت مشاعرها مرة أخرى؛ فتبكي من جديد، شعرت كم الهوان الذي في قلب والدها اتجاهها، هل لهذه الدرجة هي مهمشة في قلبه، وعبء كبير عليه؟ تعلم أن والدها قاسٍ عليها، ولكنها كانت تعذره؛ لأجل عمله الشاق، لكنه حقًا قاسي، ولا تهمة، هكذا أدركت، وأصبحت لا تملك سوى الدعاء من الله النجاة، وأن تتمسك بـعلمها، وإن أصبح هباءً.

وفي حين بكائها، شعرت بأن باب غرفتها يُفتح وحين التفتت وجدت والدتها، فاعتدلت من جلستها ومسحت دموعها من عينيها المحمرتين، وقالت والدتها بصوت منخفض رحيم، فقد شعرت بكم الحزن الذي يملك سارة:

- أنا عارفه إن في دماغك أسئلة كتيره، وأنا مستعده يا سارة أجابك عليها كلها...

وأردفت الأم قائلة:

- لأنه من حقك تعرفي، حتى لو أبوكي مقالكيش حاجة لحد دلوقتي، بس بقول لك أهو من دلوقتي، مش من حقك أنك تغيري قررنا مهما كان... فاهمه؟

تعجبت سارة من حديث والدتها، وثار بداخلها الفضول، لتتساءل في تعجب:

- إي اللي مفروض أفهمه!

- اسمعي.....

وحكت لها الأم كل شيء وفي كل جملة تزداد سارة دهشة أكثر وحرناً، وبمجرد أن أنهت والدتها حديثها، قالت ثائرة:

- إي اللي أنت بتقوليه دا، مستحيل أوافق... مستحيل إني أوافق على الجواز ده دي مهما كانت، أنتم أكيد اتجننتوا...

وتابعت وقد قامت من على سريرها، وبصوت أعلى:

- عايزين تجوزوني واحد متجوز! مش مصدقاكم والله، عمري ما هقبل إني أبقى زوجه تانيه أو إني أدمر حياة حد من غير أي ذنب...

وتابعت بعد أن تنهدت وهدأت من أعصابها قليلاً:

- مهما قولتوا ومهما عملتوا عمري ما هتجوزه... أبدا... مهما كان الظرف اللي بيمر بيه، وأنت فكرك الكلمتين اللي دخل عليكم بيها دول صح؟

لم تجاوبها الأم على أسئلتها الغاضبة، وقالت بلا مبالاة وهي تهم للوقوف:

- القرار مش ليك القرار للعريس هو اللي هيقرر إذا كان موافق أو لاء...
حينها قالت سارة كلماتها التي خرجت منها حزينه، باكية:

- يا ماما أرجوك تفهميني أنا ليا أحلام نفسي أحققها، وأنت عرفاه،
نفسى أدخل الكليه وأتخرج منها... أرجوك يا ماما متحرمينش من
لحظه زي دي عشان خاطرني... لسه بدري أوي... أرجوك.

أنهت آخر كلمة لها وقد هبطت دموعها، لتقول والدتها باستهزاء واضح:

- شوفوا مين بيتكلم... فاشلة الفاشلين... اللي مش نافع في أي حاجه...
أنت بتحسبي نفسك مين! أنت لو جبتي خمسين في الميه يبقى بالغش...
مفيش كلام في الموضوع دا...

وتابعت والدتها وهي تخرج من الغرفة:

- الواحد غلطان انه حب يفهمك حاجه... كان زمانى سبتك على عماك
كدا...

وفور خروج والدتها من غرفتها ازداد نحيبها وبكائها المسموع
وعادت إلى سريرها متكورة على نفسها، تدعو وتناجي الله بصوت
مبحوح "يارب نجيني، يارب حلمي... يارب نار ماما وبابا أحسن
بكتير من النار دي، يارب أنقذني منهم... يارب"

في مكان آخر:

- مالك يا مروان؟ أرجوك كفاية تعذب في نفسك كدا...

- مش قادر يا منه... مش عايز أطفال، مش عايز أي حاجة غيرك، أنتِ
أهم حاجة عندي في الدنيا كلها.

جلست منة وكانت فتاة شابة جميلة، وأخذت رأس مروان على حجرها
ورببت على شعره، وقالت وهي تمثل القوة:

- إحنا كام مره اتكلمنا في الموضوع دا... قولتلك لو مش هتعمله عشانك،
اعمل كدا عشان خاطري وعشان خاطر مامتك وباباك... متعاقبش نفسك،
ولا مامتك وباباك عشاني... اتوكل على الله كله خير...

- مش عارف يا منه حاسس إني بظلمك.

- مش أنا اللي طلبت منك؟ يبقى بتظلمني في إي؟

حينها تنهد مروان قائلاً:

- ربنا هيحلها من عنده، وتأكدي إنه لولا إصرارك أنتِ وأهلي مكنتش
قدمت على خطوة زي دي.

واعتدل من جلسته وقال وهو يقبل يد زوجته في جنو:

- ربنا يخليك ليا.

-ويخليك ليا...

وتحركوا إلى غرفتهم؛ ليناموا، وقد بدى على وجه منة حزن تحاول أن
تخفيه...

باليوم التالي:

ذهب مروان إلى عمه كي يخبره قراره:

- بص يا عمي أنا موافق، لكن في شرط.
- اتفضل يا سيدي أشرط، يارب بس نخلص من الموضوع دا.

قال مروان فوراً:

- عايز أتكلم معاها، قبل أي حاجة.
- بس كدا! بسيطة، أصلاً دا حقك، هو دا الشرط؟
- اه.
- ماشي يا سيدي.

في ذلك الوقت ذاته، كانت سارة بغرفتها تصلي صلاة الظهر، وأنهت صلاتها على عجل حين سمعت والدتها تطلبها بصوت عالٍ وبدأت تسبها حين لم يأتها ردها؛ لذلك ذهبت سارة إليها بسرعة وبدأ يومها الذي تظنه عادي، من تنظيف وترتيب ومساعدة والدتها بالمطبخ، مع تحمل كبير لكم السب والضرب والصوت العالي منها...

إلى أن أتى والدها، وفي حين تجهيز الصينية، دلف الأب المطبخ وهو ينهي مكالمته ما وبدا على وجهه الفرحة، وقال في حماس:

- عارفين مين كان بيكلمني؟

- مين بقى إن شاء الله!
- العريس اللي أتقدم لبنتك.

حينها توجهت ملامح سارة وقالت بصوت منخفض لم يسمعه أحد
"وافق!" لكن والدتها قالت بصوت عالٍ وبفرحة أيضًا:

- وافق؟
- عايز يقابل سارة، هيجي زي امبارح عالساعة خمسة، يعني كمان شوية...

وتابع وفي صوته تهديد ووعيد:

- وأنت يا سارة لو جالك وسألك عن رأيك وقولتيله أي حاجة غير انك موافقة، وقتها ما هيطلع عليك نهار، فاهمة؟

حينها خافت سارة كثيرًا من نبرة والدها وأسلوبه القاسي وتهديده لها، وكانت في عالم من الأحزان لدرجة أنها لم تشعر بأي شيء فعلته بعدها، لا عندما جعلتها والدتها تترك ما بيدها وتغسل نفسها، ولا عندما دلفت معها الغرفة وأمرتها بارتداء ملابس أخرى، كانت وكأنها تُساق إلى قدرها غير قادرة على تغييره، كل هذا بسبب تهديد ووعيد والدها، الأب الذي هدد ابنته بقتلها، إن رفضت أول شخص تقدم لها، الأب الذي هدد بقتل ابنته الوحيدة؛ لأجل شخص غريب، بل لأجل المال!

لم تفق إلا عندما أخبرتها والدتها بمجيئه، حينها عادت لواقعها، أتى والدها ليخبرها أنه بانتظارها، فذهبت في صمت بذات الوجه المتجهم، والقلب المكسور، ولكنها رغم كل شيء قررت أنها سترفضه مهما كان مصيرها...

كانت صامته وهو أيضاً، كان يبدو عليه الحرج، وبدى أنه قد فشل عدة مرات في بدأ حديث معها، أو أن يُعرف عن نفسه على الأقل، وفي لحظة استجمع قواه قائلاً:

- أنا مش عارف إن كنتي عارفة وضعي أو لاء، بس أنا جيت النهاردة عشان أعرفك كل حاجة...

لقد دلف في لب الموضوع على الفور، لم يُعرف نفسه، ولم تعرف على الأقل اسمه، ولكن كل ذلك لم يكن يهمها مقدار ما كان يجول بخاطرها "عايز تعرفني إي! مفيش مبرر إنك تتجوز على مراتك أبداً" كم كانت تود أن تخبره ذلك بصوتٍ عالٍ، ولكنها آثرت الصمت المُطبق.

في الحقيقة كان بداخلها الكثير من الفضول لتعرف ما سيحكي وقالت في نفسها "هاسمع بس برودو وجهة نظري مش هتتغير، ومهما حصل مش هقبله حتى لو... حتى لو هربت" وبدأ يحكي بالفعل كل شيء، قائلاً:

- أنا متجوز منه من خمس سنين اتجوزتها عن حب، أول ما حببتها كنا وقتها في أولى جامعه...

كان يتضح من صوته وهو يحكي مدى حبه لزوجته، وقد فضحته لمعة أعينه وهو يكمل قائلاً:

- ولما اعترفتها بحبي قالتلي يعني عايز مني اي... قالتلي بص يا ابني انت عارف اللي عايز بنت بيعمل ايه وانت لو عايزني تعالى اطلبني... قتلها بس أنا مش جاهز قالتلي وقتها خلاص هستناك لحد ما تجهز ومشت وسابتني... عرفت وقتها إنها بتحبني وعرفت كمان إنني مش هعرف أوصلها غير لما أكافح، فضلت أربع سنين أشتغل وأجهز نفسي ومستني اللحظة اللي أطلبها فيها... وبعد أربع سنين شقى اتعينت في شركه صغيره، ورحت على طول اتقدمت لها، وباباها وقتها كان

مستصغرنى وإني لسه فى بداية حياتى... بس بسبب إصرارها
وإصرارى باباها اضطر يوافق...

تابع ولا يزال على وجهه نفس الابتسامة:

- واتجوزنا فضلت معايا عالحوة والمره، فى الأيام اللي كنا بنلاقي فيها
اكل واللى مكناش بنلاقي فيها... دايمًا بتصبرنى، لحد ما ربنا فرجها
علينا، ورزقنا من كل خيرات الدنيا، الحمد لله...

بس عدت سنه واثنين وماما وبابا بدأوا يسألوا على حفيدهم،
عايزين يشوفوا حفيدهم، فى الوقت دا بدأنا نلاحظ ان فى حاجه غلط...
رحنا كشفنا ولقينا إن منه عندها مشكله... حاولنا كتير بس من غير
فايده... منه طلعت مابتخلفش!

ومع إصرار أمى وحزن أبويا اللي باين فى عنيه معرفتش اعمل
ايه... كانوا بيقترحوا عليا إني أطلق منه بس انا عمري ما أطلقها
ملقتش حل قدامى غير انى اتجوز بنت تخلفي الطفل بمقابل مادي،
وبكدا أكون جبت الطفل اللي هيكون سندي بعد كدا والحفيد اللي هيفرح
أمى وأبويا... لو حصل واتجوزنا، هيبقى فى شقه تانيه، هتكون
مفروشه وقريبه من شقة أهلى وهجيك كل يوم لمدة ساعه وأي حاجه
أنت عيزاها هتبقى عندك... أنت أملنا الوحيد، بعد ربنا... أنا دورت
كتير على حد، أنت أول واحد توافق أتمنى تقدرى ظروفنا.

وأنهى حديثه إلى هذا الحد، وبدت الصدمة جلية على وجه سارة؛ لأنه
فى الحقيقة هذا ليس نفس حديث والدتها لها، لقد أخبرتها أنه رجل معه أموال
كثيرة ويريد أن يتزوج الثانية، وأنه يريد لها فقط بدون أي شيء، وهو
سيحضر كل شيء، صدمها أن الأمر لم يكن كما أخبرتها والدتها، ومن هول
ما قال، ومع تهديد والدها لها، لم تستطع أن تفتح فمها بكلمة، كانت تشعر
بأنها لا تستطيع التنفس، وشعرت بشعور خانق ليس له مثيل، جعلها تقوم

مسرعة من أمامه في حركة منها لم يتوقعها، وأغلقت على نفسها باب غرفتها...

بعد دقائق ليست بكثيرة دلقت والدتها الغرفة، متسائلة:

- اتكلمتوا في إي؟ ولي دخلتي الأوضة بالطريقة دي؟

قالت سارة ممسكة لأعصابها بصعوبة:

- أنتِ أزاى مقولتليش ظروفه، وإنه مش هيتجوزني عشان اللي أنتِ قولتية خالص!

- وهو دا هيفرق في إي، كدا ولا كدا هيبقى جوزك.

- جوزي لحد ما أخلف له الطفل... نسيتي دي!

حينها ضحكت الأم بسخرية قائلةً:

- مين اللي قال لك إنه لحد ما تخلفي الطفل، أنتِ لم تطلعي من هنا مش هترجي غير بكفناك، إحنا فاضيين بقى، نجوزك كل شوية!

صعقها رد والدتها وجعلها تجفل ويخر عليها الصمت المطبق إلى أن خرجت والدتها، حتى دموعها أبت أن تسقط، وقالت في نفسها " إزاى أنتِ تكوني أم! أنتِ أم! طب إزاى؟ أنا في موقف أتمنى فيه الأرض تنشق وتبلعني، يارب"

وبمجرد أن تحدثت بداخلها بدأت تبكي ولم تسمح لبكائها طويلاً، بل بدأت تصلي وتدعو، ولا تدري لم؟ ولكنها اهدت أن تصلي صلاة استخارة، علّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً...

ومر يومان كانت سارة فيهم تلازم الصمت، وتتعجب من راحتها الغريبة لذلك الموضوع الذي رفضته في البداية، حتى أنها أخبرت والدها في اليوم الثاني أنها موافقة، لم يصدق والدها ذلك، وازداد حماسه لدرجة أنه اتصل بهم على الفور ليسألهم المقابلة للاتفاق الأخير، وتحديد موعد الزفاف... وهكذا رضيت سارة بقدرها المحتوم، وتخلت عن حلمها...

وتم تحديد موعد الزفاف والذي كان بعد يوم ميلادها بأسبوع، وكانت سارة رغم تخليها عن حلمها، لم تستطع أن تنساه أو أن تتوقف عن التفكير فيه كل يوم، ومرت الأيام واقترب يوم القران، وفي وسط التجهيزات التي وجدت نفسها بداخلها عنوة ظهرت نتائج الاختبارات، وإن تساءلتم عن نتيجة اختباراتها، فقد كان الفضول ينهش بداخلها، ولكنها تعلم أن ذلك لن يزيد لها إلا حزن وخيبة، فإن أنت بمجموع كبير فقد ذهب هباءً، وإن لم تأت به فلا يهتمها، فلم تفتحه، ولم يكن لديها متسع من الوقت في الأساس.

وأتى موعد القران، وكان حفل صغير جدًا، وحدث في منزلهم المتواضع، ولم يحضر سوى الأقارب حضرت عمته وكانت أشد الحاضرين فرحًا، ليس لحبها لسارة، بل لتخلصها منها، فدائمًا كانت ما ترى نظرات الإعجاب من ابنها البكر لسارة، وهكذا تظن أن عبئًا كبير قد أزيح، وحضر عمها الوحيد، الذي ظهر عليه عدم الإعجاب بما يحدث وبوضع سارة، هذا العم الذي كان مختلفًا كليًا عن أخيه وأبيه، الوحيد في العائلة الذي تمسك بالعلم وتعلم حتى تخرج معلمًا للطلاب، ويحرص كل الحرص على تعليم أبنائه، أما من ناحية والدتها فلم يأتي الكثير من الأقارب، وعن سارة فلم تدعو أحدًا، رغم وجود أصدقاء وإن كانوا غير مقربين لها كثيرًا، ولكنها خجلت من

نفسها وودت لو لم يعلم أي شخص عما هي مقبلة عليه، فسارة الحاملة
المجتهدة، هل تكون تلك نهايتها الغير متوقعة!

وها هي سارة قد وقعت على قدرها الذي لم تختره، بل فُرض عليها
وحاولت تقبله، وحين حان موعد مغادرتها من منزلها بردائها الأبيض
البسيط ودعتها والدتها بكلمات هي الأقسى على الإطلاق قائلة:

- أخيرًا هتمشي وتريحينا.

- كلها سنة وهتلاقيني عندك تاني.

قالت الأم مبتسمة، تظهر من بعيد كمن يودع ابنته في فرح، ولكنها كانت
تتحدث بنبرة من سخرية، قائلة:

- مين قالك إنك هترجعي تاني؟ اللي بيطلع من البيت دا ما بيرجعلهوش
أبدًا...

أجفلت سارة من حديث والدتها، فها هي للمرة الثانية تخبرها ذات
الحديث، وأصبحت لا تعلم هل هذا كان مجرد تهديد أم ما تقصده حقيقي،
فتساءلت في حيرة، وتود حقًا أن تعرف إجابة سؤالها:

- يعني إي؟

- يعني يا حلوة دا خلاص بقى جوزك، وأنتِ وشطرتك بقى تخليه
ميطلقكيش.

هكذا أخبرتها والدتها وبدون أي خجل، أحقًا ما سمعته أذنيها! لم
تستطع سارة تملك نفسها وقالت:

- إي اللي أنتِ بتقوليه دا، أكيد مش طبيعية...

والتفتت الناحية الأخرى ولا تزال تحدث نفسها، وقد ملئت قلبها حزنًا أكثر:

- أكيد!

حاولت ألا تحزن من حديث والدتها الغريب، وأخذت نفسًا عميقًا حاولت أن تلقي به أحزانًا، ولكن هل ما تمر به ستنتهيه تنهيدة أو مجرد هواء!

ذهبت مع زوجها إلى منزلها الجديد، وكانوا طول الطريق صامتين، لم يتحدث، وهي لازمت الصمت، تفكر في حياتها الجديدة، وتشعر كم أنها غبية لموافقتها على وضع كهذا "إي اللي أنا عملته دا! لحد دلوقتي مش قادرة أستوعب الموقف اللي أنا فيه، أكني في حلم، حلم! دا كابوس بشع، يارب" ورغم أن الوقت قد فات على الندم ورغم عدم استيعابها طيلة تلك الفترة، ورغم إجبارها على كل ما هي فيه، وحتى وإن بدى ظاهريًا خلاف ذلك، ورغم أنها أثبتت لنفسها أنها كانت أجبن من أن تعترض أو أن تهرب، ولكن أملها في الله كبير، وأملها في جبره لها أكبر، فقد دعت وصلت ووجدت نفسها على ذلك الطريق، وإن لم يتبين لها الخير الآن فهو خير لا محالة.

وحين وصولهم إلى المنزل تفاجأت بتوديعه لها وذهابه، شكرت الله كثيرًا في سرها وبكل أريحية جلست في المنزل، الذي كان أجمل وأكبر بكثير من منزل والدها، وبدأت تستكشف كل شيء، منزلها كان على الطراز الحديث ذو ألوان هادئة ومريحة للعين، بمجرد أن تدلف المنزل تجد أمامك صالة كبيرة بها أريكة مريحة حقًا، وعلى الجانب الأيمن جزء للسفرة محاوط بجدارين مفرغين من الخشب، وتلك السفرة بعدها يقع المطبخ الذي صمم ليكون على الطراز الحديث، وبالجانب الآخر توجد غرف المنزل...

هكذا ظلت ليلها كله تستكشف المنزل وتفتح كل أضوائه، فهي لم تستطع النوم أبدًا...

ومرت الليلة وجرتها ليالي وأيام وهي في المنزل لا تخرج منه، ولا يزورها أحد كباقي العرائس، وكأنها فعلت جرماً ما وتختبئ منه، وكان يأتي المدعو زوجها كل يوم ساعة واحدة في اليوم، وكان يسألها إذا كانت تريد شيئاً، ويعطيها كل أسبوع مصروف غير قليل من المال، لاحظت خجله منها، وعدم رفع رأسه لها في كل مرة يأتي وكأنها غريبة عنه، لم يأكل من طعامها رغم إصرارها، ولم ينزع عنه حذائه ولا مرة حين أتى، كانت تتعجب منه كثيراً، ولكنها كانت تحمد ربها أكثر، فأكثر، في كل مرة يأتي فيها وتجده يتصرف بحذر هكذا.

مر شهر على هذا الحال، وأصابها الملل والاكتئاب، وأصبحت الساعة التي يأتي إليها هي تسليتها الوحيدة، كادت كلمات الرجاء تخرج منها في أحيان كثيرة كي يجعلها تخرج وترى الشارع وأوجه الناس، ولكن خجلها كان يمنعها في كل مرة، حتى في أن تستأذنه في الذهاب إلى أهلها.

إلى أن أتى يوم وفي أكثر مراحل مللها رن هاتفها برقم جديد لم يحادثها منذ زمن وكان خالها، أجابته فوراً وأول ما وصل إلى سمعها هو عتاب خالها لها لزوجها دون معرفته، وسألها عنوان منزلها وأنه قادم إليها بمفاجأة، فسرت كثيراً ورحبت به، واتصلت على مروان من بعد أن أغلقت الخط تخبره، ولكنه اعتذر عن المجيء، وبعد ساعة أتى خالها، ودلف منزلها وجلس، فقالت مرحبة:

- نورتنا يا خالي، عامل إي؟

- بخير، ألف مبروك يا بنتي، كدا أعرف بالصدفة جوازك!

ابتسمت قائلة:

- والله يا خالي وأنا.

نظر لها خالها نظرة مطولة، لا تدري هل هي نظرة أسى أم إشفاق، وتنهد قبل أن يقول:

- مش عايزة تعرفي إي هي المفاجأة؟
- عايزة طبعًا.

أخرج ورقة من حافظة ورق كانت معه، وأعطها لسارة قائلًا:
- اقراي وأنت تعرفي...

فتحت الورقة وقرأت ما بها، كانت نتيجة اختباراتها بالثانوية، وما صدمها مجموعها كان مجموع يأهلها لدخول كلية أحلامها التي ضاعت بكل سهولة، ذلك شيء جعلها تبكي حزناً وقهراً على حلمها الذي أضاعته، وشردت في الحلم البعيد ولم تستيقظ سوى على صوت خالها وهو يقول:

- ألف مبروك يا بنتي.
- الله يبارك فيك يا خالو.
- كنت متأكد إنك متعرفيش حاجة عن نتيجتك، عشان كدا اهتميت إنها توصل لك، لمّا لقيتك مجيتيش وسحبتيها من المدرسة...

وتابع وهو مبتسم رغم عينيه الدامعتين:

- افرحي بقى يا دكتورة.
- دكتورة إي بقى يا خالو.
- متقوليش كدا، وأنا واثق إني هشوفك في يوم من الأيام دكتورة ناجحة...

قال حديثه هذا وجعل سارة تنظر إليه في إشفاق وتحسر على حالها وهي تقول "يا ريتني كنت على قد ثقّتك ليا يا خالو، ياريت كان في إيدي أحقق حلمي، لكن بعد إي! خلاص راح..." ولكنها قالت بصوت ضعيف؛ لتجيب خالها:

- إن شاء الله.

تنهد خالها وهو يقوم يعدل من هندامه:

- أستأذن أنا بقى.

قالت تسترجيه:

- ما تخايك قاعد شوية.

قال وهو ينظر في ساعته:

- كان نفسي أقعد معاكي أكثر من كدا، بس هعوضها لك بعدين يا
سرسورة، وابقى سلميلي على عريس الغفلة.

ابتسمت سارة من حديث خالها، لقد كان يناديها هكذا وهي صغيرة، يا
له من زمن بعيد لم تسمع فيه ذلك الاسم المحبب إلى قلبها، ثم أطرقت خجلاً
عندما ذكر زوجها قائلة:

- حاضر يا خالو.

وتابعت وهي تمسك باب منزلها تفتحه لخالها:

- على فكرة مش بنسى الوعود...

- طبعاً أنتِ هتقوليلي!

ابتسمت وضحك خالها، ثم ودعها هابطاً من أعلى السلالم.

تلك الزيارة جعلتها سعيدة حقًا رغم ما تحمله الزيارة من سبب أحزنها كثيرًا وجعلها تتساءل في نفسها لماذا؟ وقبل أن تطرح الكثير من الأسئلة التي ليس لها أي معنى بالوقت الحاضر، منعت دموعها المقهورة من الهبوط، وتوضأت وخرت ساجدة، صابرة محتسبة عند الله حالها، شاكية له، وهنا بكت...

هذا ما جعلها تهدأ من روعها، وتضع شهادتها جانبًا الآن، فهذا ليس وقتها حقًا، فقد مضى كل شيء، ولن تجلس تبكي على اللبن المسكوب، خبأتها في درجها الخاص بجوار السرير، وتناستها...

كانت سارة كل بضعة أيام تتحدث مع والدتها عبر الهاتف، لم تتصل عليها والدتها يومًا، وكل محاولات الاتصال كانت من سارة، وحين تجاوبها والدتها كانت إجاباتها مقتضبة سريعة، تشعر كأنها تفعل ذنب ما لاتصالها على والدتها، وتنتهي المكالمة سريعًا، ولكنها حقًا كانت تحتاجها في وقت كهذا وتواصلت معها على أمل أن تجبر بخاطرها ولو بكلمة، ولكنه كان أمل شبيه بالمستحيل! وكان ما تُصبر نفسها به هو أنها تطمئن على عائلتها، وإن كانت بكلمات مقتضبة...

ومرة أخرى مرت الأيام على شاكلتها دون أي جديد، إلى أن قررت أن تستجمع شجاعته وتستأذن من زوجها لزيارة عائلتها، نعم، لقد اشتاقت لهم كثيرًا رغم الظلم الذي عاشته ورغم الحياة التي قاستها إلا أنها اشتاقت لهم، وحتى إلى طلباتهم، إلى خلافاتهم، فهم _ مهما حدث ويحدث وسيحدث _ عائلتها، وهي تحبهم رغم تكبدها الآلام والحزن بسببهم...

وأعلم أنك الآن تتساءل لماذا كانت خجولة من طلبها شيء كهذا من البداية من زوجها؟ فهو حقها! الحقيقة أن والدها كان قاسي مع والدتها، ولم يكن يسمح لها بالذهاب إلى أهلها إلا بعد إلحاح طويل وساعات محددة، لذلك حين طلبت من زوجها ذلك الطلب ووافق عليه فورًا طارت فرحًا، ورغم

عمله الصغير كُبر في نظرها كثيرًا، واحترمته، لقد ظنت أن كل الرجال كأبيها! "كنت أحسب كل الرجال كأبي في ظلمه، ولكن اتضح أن ظلم أبي ليس ككل الرجال"

لقد قبل ذهابها، وبياتها لديهم أيضًا، وذهبت على الفور وقد قررت أن تفعل كل أعمال المنزل كالسابق، ولن تجعل والدتها تمس شيء، تريد أن تسترجع حياتها وما اعتدته، فقط كي تجد حجة لتجلس وسط أهلها...
وهنا يتضح أن الشيء أو الشخص الذي اعدت عليه، وابتعدت عنه، حتمًا ولا بد ستفتقده، وإن كان ذو أثر سيء عليك...

قرر زوجها أن تذهب إلى أهلها معه، ثم يذهب إلى زوجته الأولى، كانت هذه هي المرة الأولى لها لترى الشارع منذ يوم دلوفا المنزل الجديد، وكانت متحمسة للذهاب إلى والديها كطفل صغير يذهب إلى الملاهي، وها هي قد وصلت أخيرًا.

وحين دلفت المنزل وسلمت على إخوانها الصغار وأعطتهم الحلوى، وعلى أمها بابتسامة رحبة، وبعد ما لا يزيد عن العشر دقائق تفاجأت بوالدتها تقول:

- إي اللي جابك إن شاء الله!

- إي يا ماما! لقيتكم ما بتجوش فجيت أنا...

وتابعت وهي مبتسمة:

- وهبات عندكم لحد بكرة.

- هتباتي! لي يعني؟ مش عندك بيت بردو؟ ولا بتنامي في الشارع؟

- يعني إي؟

- يعني مش عايزة تخلف... وقومي روعي بيتك مش محتجينك هنا...

وتابعت في سخرية:

- مش قولت لك اللي بيطلع من باب البيت دا ما بيدخلهوش تاني غير على كفته!

قالت سارة وهي متأثرة:

- يمكن أنتم مش محتاجني بس أنا محتاجكم.
- لي مالك! مش شيفاكي مية يعني، ما أنت كويسة أهو، ولا بتدلعي وخلص؟

وأردفت في غضب:

- إي القرف دا يا جدعان!

حينها لم تتحمل سارة تلك الكلمات الدامية والقاسية، قالت وهي تحاول أن تتظاهر بالقوة في كلمات الضعف التي أخرجتها:

- ماما أرجوك، أعتبريني واحدة جاية عشان تساعدك، وهمشي بكرا، أو عدك إني مش هخليكي تشيلي شعراية من على الأرض...

قالت الأم بصوت عالٍ وبغضب، كمن يتحدث لعدو له:

- لاء يا حبيبتني شكرًا... كل اللي عيزاه منك أنك تمشي ومشوفش وشك تاني هنا، أقولك يا اختي اعتبرينا متنا... ماشي!

وقتها لما تستطع أن تكبح دموعها، كم أن هذا قاسٍ جدًا عليها! وقالت كلماتها الأخيرة من بين شهقاتها:

- خليني أقعد... لحد ما... بابا... يجي، عايزة... أسلم عليه... أكيد وحشته.

- لاء يا حبيبتني، أنت آخر حد ممكن يوحشه... مش قولتلك اعتبرينا متنا!

في منزل آخر:

- جي بدري النهاردة مش زي عادتك يعني.
- اه، وصلت سارة عند أهلها وجيت.
- بجد! أنا فكرت إن ملهاش أهل.
- مش قولنا بلاش غيرة بقى!
- مين قالك إني غيرانة، أنا مشفقة.
- مشفقة على إي بالظبط؟
- عليها، يعني ملهاش حد يسأل عنها.
- روجي أنتِ واسألني عنها.
- والله! وإي كمان؟
- يا بنتي مش هتبقى أم ابني...
- اه قول كدا بقى، بتعايرني يعني يا مروان.

قالتها بصوت عالٍ وقد تجمعت أدمع بعينيها الخضراوين؛ ليقول
بتعجب أولاً انتهى بصوت عالٍ:

- أعايرك بإي! ولا أنتِ غاوية خناق وخلص، بقولك إي يا منه أن مش
ناقص خناق النهاردة بالذات... يلا وضبي الأكل.

أشاحت بيدها وهي ذاهبة لغرفتها، قائلة:

- روح لأم ابنك تأكلك.
- صبرني يا رب، أنتِ طبيعية!
- يعني أنتِ اللي طبيعي إرحمني...
- ماشي يا منة، ماشي...

كان قد غضب بالفعل، وقال وهو ممسك بقبضة باب المنزل:

- دي ماعدتش عيشة.
وذهب خارجًا...

كانت سارة بسيارة الأجرة عائدة إلى منزلها محملة بالحزن والأسى وبواقى قلبها المكسور، لم تكن ضعيفة هكذا في مثل هذا الوقت، الوقت الذي أرغمت فيه على الزواج وفقدت فيه حلمها، وأدركت أن العائلة لم تكن سوى في خيالها، عادت من منزل والدها منكسرة، كادت أن تذهب إلى مكان آخر غير منزلها، مكان تعرفه جيدًا، ولولا أن الليل أسدل أستاره لما تراجعته، وقررت أن تعود إلى منزلها مجددًا، مطلقاً أدمعها التي أصبحت كثيرة هذه الأيام...

كانت تسأل نفسها في حيرة وحزن " هو في حد قلبه حجر كدا! أنتِ اللي مربيانى، لي بتعملي معايا كدا!" وبدأت تدعو الله وتسأله الصبر، إلى أن وصلت منزلها، وفتحت باب منزلها، قالت من بين شهقات بكائها:

- بسم الله الرحمن الرحيم، أنت هنا!

- سارة! إي اللي جابك؟

لم تجاوبه، شعرت بالإحراج من سؤاله كثيرًا، ولاحظ هو أثر بكائها، فاستدرك قوله قائلاً:

- إي دا أنتِ بتعيطي! في حاجة حصلت؟ أهلك كويسين؟

حينها أدركت سارة دموعها فمسحتها بيديها، ولازمت الصمت ولا تزال الشهقات التخرج من بين أنفسها دون أن تستطيع إيقافها، ابتسم على عفويتها التي أرجفت قلبه في الحقيقة، قائلاً في حنو:

- ممكن تحكي لي اللي مزعلك؟

قالها بلطف جعلها تتعجب منه كثيرًا، ورأته وهو يقهقه، كم أن ابتسامته جميلة! قائلاً:

- حتى اعتبريني واحد صاحبك.

حينها ابتسمت سارة، وهي تقول:

- معنديش رجالة صحاب.

قال ولا يزال ضاحكًا:

- خلاص يا ستي اعتبريني واحدة صاحبتك.

حينها ضحكت في خجل، ليتابع وهو يقول:

- بالمناسبة أنا سمعت إنك لما تحكي لحد على اللي جواكي بترتاحي.

ازدادت خجلًا واختفت ضحكتها، فقال:

- قولت أعرفاك يعني...

لم تتركه يُكمل حديثه وقالت وكأنها قد وجدت حبل نجاة إما ينقذها أو يشاركها الغرق على الأقل:

- أمي مانت لما كنت صغيره... مشفتهاش.. عشان كدا بابا اتجوز مراته

اللي انا بنادلها ماما على أساس إنها اللي ربنتي بدل ماما... هي كانت

دائمًا قاسيه ومقويه بابا عليا... بس الحمد لله كنت راضيه... لما رح

النهارده قالتلي ان معدش ليا بيت هنا واني خلاص اتجوزت... بيتي

عند جوزي... قالتلي اعتبرينا متنا...

حينها أجهشت بالبكاء متابعة:

- طردتني...

ولم تستطع أن تتحدث أكثر، شعر مروان بالحزن حقًا، وتساءل:

- طالما أنت عارفه إنها مبتحبكيش رحتي لي!

- كنت حاسه بملل... من يومها مخرجتش...

- كنتي تقوليلي!

شعر بالفعل بمعاناتها، فقال وهو يفكر في حل ما:

- بعد كذا لما ترهقي روعي أقعدي مع أمي... هتفرح جدًا بوجودك ...
لمعت عينا سارة حينها، إنها حقًا لا تعرف عنه أمًا ولا أب ولا تعرف
أي شيء عن ذلك الشخص، وقالت:

- بجد!

- أيوة، ولو احتجتي تخرجي قوليلي وأنا أبقى اخرجك كمان...

حينها أسدلت وجهها، وقالت في خجل:

- حاضر...

وتساءلت في حرج:

- أنت هتنام هنا النهارده!

ابتسم في حرج قائلاً:

- اه في مانع؟

قالت في حرج أكثر:

- لا أبدًا.

وكانت هذه المرة الأولى لهما في المنزل سوياً...

ومرت الأيام وشعرت سارة بالتغيير منذ ذلك اليوم، فأصبح مروان
يأتي ويجلس أكثر من الساعة، بل لقد سألها يوماً عن طعامها وأشاد إعجابه
به، وأصبحت سارة تذهب إلى والدتها زوجها، وتعرفت عليها أكثر وعلى

والده، وكم كانوا ذوي قلب كبير كما قال مروان، واعتادت على الذهاب إليهم، وبدأ الملل يقل تدريجيًا، وبيتعد عن حياتها...

لم تجرؤ منذ ذلك اليوم أن تذهب إلى عائلتها مرة أخرى، واكتفت بالاتصال بهم والاطمئنان عليهم؛ كي لا تقع في وزر عقوق الوالدين، وقطع الأرحام، وكانت عندما تتصل على والدتها تحاول أن تخبرها أنها قد نست ما حدث وأنها مستعدة بأن تأتي، ولكن لم تعطيها والدتها جواب في كل مرة، أما الأب فكان وكأنه تناسى وجود ابنة له تدعى سارة.

أما سارة فكانت متخبطة المشاعر فالأهل الذين من المفترض أن يغدقوها حنانًا وعطفًا، بعيدين كل البعد بأن يكونوا كذلك، ومن هي ضيفة في رحابهم تشعر منهم بحنان لم تبلغه يومًا، إنها تعلم نهاية ذلك الزواج، لقد تزوجوا لغرض واحد لا غير، وإن حاولت والدتها أن تقنعها بخلاف ذلك، وإن هددتها والدتها، فلا يمكن إنكار سبب وجودها هنا.

وهي لا تريد لمشاعرها أن تنجذب للطريق الخاطيء، فالقلب يختار من يحنو عليه، وهي لم ترَ حنو إلا عندما غادرت منزل والدها، ظنت أن أي مكان بعيد عن منزل والدها سيكون الحنان والأمان، ولذا قررت أنها وبعد أن تتطلق ستذهب وتعيش بعيدًا عن أهلها، وستعمل وستؤسس منزلها الخاص، قررت أنها لن تعود مرة أخرى إلى أهلها.

أما منة فهي لم ترَ سارة سوى مرة عند حماتها، وعلمت سارة أنها تأتي كل خميس لزيارتها، فأصبحت تحاول تجنبها، حتى وإن أخبروها أن هذا الزواج برضاها، فطالما هي لم تتعمد مقابلتها قبلاً، فمن المؤكد أنها حزينة وأن قلبها _ وإن كانت تحاول أن تثبت خلاف ذلك _ يملأه حزن؛ لذلك تجنبت سارة اللقاء بها، رفقًا بمشاعرها.

استمر هذا الحال لشهرين إلى أن أتى ذلك اليوم...

كانت في منزلها مثل أي يوم، تعد الطعام، ولكنها تشعر بإرهاق منذ الصباح، وهو ليس بشيء جديد عليها فالإرهاق يلازمها؛ لنقص فيتامينات جسدها، إلى أن شعرت فجأة بألم شديد أسفل بطنها، ولم تحتمله، فقررت الذهاب إلى حماتها، وترقد لديها، هذه المرة شعرت أنها ليست بخير حقًا، وحين ذهابها كانت خطواتها تبطئ، وتبتعد المسافة رغم قربها، والألم يشتد كل حين وأصبح غير محتمل، وبمجرد أن وصلت لباب منزل حماتها وطرقت الباب شعرت بالإغماء وآخر ما رآته زوجها مروان وهو يفتح الباب ثم أغمى عليها...

تم نقلها على الفور إلى المستشفى، وهناك أعطاهم الطبيب البشرى،
وبوجه مقتضب قال:

- المدام حامل في الأسبوع الخامس.

كان بالغرفة وقتها مروان الذي يتحدث مع الطبيب، ووالدته بجوار سارة
التي أفاقت للتو، وأول ما تعجبت من أمره ذلك الطبيب العجيب الذي يعطي
بشرى بوجه مقتضب، ولكنه طالب بعمل تحاليل أخرى قبل المغادرة،
وذهب...

حين فتح الطبيب الباب رأت سارة وهي في أحضان حماتها التي كادت
تطير من الفرحة، منه واقفة بالخارج شاردة صامته، كم أنها تشعر نحوها
بحزن شديد!

مرت ثلاث ساعات إلى أن عادوا للمنزل مجددًا، وبعد أن ذهبت سارة
لتقوم بالتحاليل التي طلبها الطبيب، حجة منه للتأكد من كل شيء، عادت
ومعها حماتها، التي آثرت الذهاب مع سارة والعناية بها بمنزلها.

باليوم التالي، وكان حينها مروان بشركته، أتاه اتصال، وحين أجاب علم
أنه من المستشفى وبالتحديد من الطبيب الذي تابع حالة سارة أمس قائلاً:

- إزيك يا أستاذ مروان؟
- الله يسلمك يا دكتور.
- إحنا محتاجين كمان تحاليل من زوجة حضرتك.
- خير إن شاء الله!
- عايزين نتأكد من حاجة ضروري عشان صحة الجنين، وقبله صحة
الأم.

- طبعًا تمام، هنجيلك في أقرب وقت.

وللمرة الثانية ذهب مروان ومعه سارة إلى المستشفى لمزيد من تحاليل تحت إشراف الطبيب، في الحقيقة كانت الأعراض غريبة، ومبكرة جدًا، ليس من المستحيل أن تبدأ أعراض الحمل مبكرًا، ولكنه كان لا يحدث كثيرًا، ثم أن الألم في كثير من الأحيان لا يُحتمل.

تغاضت سارة عن كل هذا حين علمت بحملها، وأصبحت كل قليل تتحسس بطنها وتبتسم لا إرادياً، فبداخلها شخص آخر ينمو منها، إنه جزء يتجزأ منها ويتكون، كم أن هذا شعور رائع!

ومر يومان واتصل الطبيب مرة أخرى قائلاً:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- أستاذ مروان، ممكن تيجي حضرتك والمدام، المستشفى النهاردة؟
- خير يا دكتور.
- هعرفكم كل حاجة بس في المستشفى.
- مسافة الطريق وهنكون عندك...

وللمرة الثالث في نفس الأسبوع تذهب سارة فيها إلى المشفى، لم يحدث هذا من قبل في حياتها، بل لم يحدث وأن ذهبت إلى المشفى، فالمريض في منزلهم يعتمد على الأدوية المنتشرة، وفي أشد الحالات خطرًا يستشير طبيب الصيدلية...

وهناك عندما وصلوا، جلس الطبيب مع سارة بمفردهما، وبدأ يسألها على بعض الأعراض، ومنذ متى وهي تشعر بتلك الأعراض؛ ليقول الطبيب بعد كل تلك الأسئلة التي أدخلت الريبة والشك بقلب سارة:

- الأعراض اللي عندك دي مش بسبب الحمل.

كان ذلك الخبر كافٍ لتوقف قلب سارة، وتابع الطبيب:

- أي دكتور مكاني لو جاله حد بحالتك، وعرف إنك حامل مكنش هيشك في حاجة تانية وكان قال يمكن دي أعراض حمل ثقيله شوية، لكن للأسف دي مكانتش أعراض حمل، دي أعراض ورم سرطاني.

وحينها طلب بدخول زوجها، لم يكن من الجيد أبدًا ما فعله الطبيب، لقد أخبر سارة بكل شيء، كان فخور باكتشافه، ولكنه لم يأخذ على عاتقه حزن من يخبره الخبر، وكم أن هذا قد يؤثر سلبياً بالمريض...

وحين دلف مروان ورأى وجه سارة تساءل متلهفًا:

- في إي يا دكتور؟ هو الطفل كويس؟

- اه هو كويس الحمد لله، بس المدام مش كويسة... الأستاذة سارة عندها سرطان في مراحل المتأخرة والحمل خطر على حياتها، كل التحاليل دي كنت طالبها عشان بس أتأكد...

وتابع الطبيب:

- مش عايزكم تقلقوا من أي حاجة، العلم دلوقتي متقدم جدًا، بس لازم أول حاجة تعملوها هي إنكم تجهضوا الجنين، وبالنسبة للنقطة دي فأنا حذرت لكم أوضة بكرة عشان عملية الإجهاض، الورم لازم يتعالج في أسرع وقت كل ما استنينا، كل ما فرصة النجاة بتقل، ولو بتفكروا بالاحتفاظ بالحمل فنسبة نجاة المدام لا تتعدى الـ 10%.

خرجوا من عند الطبيب وأوجههم متجهمة، مصدومون مما سمعوه، كانت سارة تشعر بالعجز ولا تعلم ما عليها فعله، وتشعر وكأن هناك من يخنقها، ظلوا صامتين طوال الطريق، وحينما وصلوا للمنزل حاولوا التمثيل أمام حماتها بأن كل شيء طبيعي، ولكن كيف؟ لاحظت بالطبع تضايقهم، ولكنهم أكدوا لها بأنهم بخير، وودع مروان سارة على أن يأتي ويأخذها غدًا كي تُجهز جنينها، ودلفت هي غرفتها بسرعة، وحاولت أن تتفادى حماتها مقدار المستطاع:

- سارة...

ولكن سارة أغلقت عليها الغرفة، فتأكدت حماتها بوجود شيء ما، فقالت الأم من خلف الباب:

- من لما مشيتم وأنا قلبي مش متطمئن، ومن ساعة ما شوفتكم اتأكدت، بصي يا بنتي مش هجبرك تقوليلي في إي ولا إي اللي مزعلك، بس إنني أشوفك منهاره كدا دا كثير عليا...

وتنهدت، ثم تابعت:

- كل اللي يجيبه ربنا خير خليكى واثقة من كدا، ولو ربنا مقدرش الحمل المرة دي أو المرة اللي بعدها فهو خير...

كانت تسمع صوت بكاء سارة من الداخل؛ لتقول الأم:

- عارفة أنا في الأوقات اللي زي دي على طول بلجأ لربنا، لو محتاجة أي حاجة فأنا موجودة هنا أهو إندهي بس، ربنا يطمئن قلبك يا بنتي.

واختفى صوت الأم، ولم يبق سوى صوت بكاء سارة، ومن بين شهادتها تذكرت كل ما قاسته في حياتها، تذكرت السكين الحاد الذي تطعن به كل مرة من قبل أمها، تذكرت والدها الذي باعها، ثم تذكرت حلمها، دائمًا ما كانت تحلم بأن تصبح طبيبة مشهورة بتواضعها ومساعدتها للناس...

كم كانت تود أن تكون سببًا في فرحة عائلة، أو نجاة مريض، لقد تحطم
أملها نهائيًا، بل حياتها على وشك الانتهاء...

ثم أخذتها الأفكار إلى منحني آخر، نعم، من الممكن أنه لم يُقدر لها أن
تصبح طبيبة، ولكن يمكنها أن تحقق حلمها، عن طريق تلك العائلة التي
احتوتها، من الممكن أن تصبح دواءً لهم، تستطيع أن ترسم الفرحة على
أوجههم...

يبدو أن قدرها في الحياة هو هذا، وكيف لها أن تصبح أنانية هكذا!
ومن أجل ماذا تتخلى عن ذلك الطفل؟ لمَ تريد أن تقضي على تلك المعجزة!
إن الله قد خلق كل شخص برسالته، خلقنا الله كي نكون مسبب
للأسباب، جميعنا مسببات إلى أن يقوم يوم القيامة...

ألا يمكن أن يكون رسالتها في الحياة هو ذلك الطفل الذي ستنجبه؟

مما هي خائفة إن أكملت هذا الحمل؟ هل هي خائفة من مرضها؟ هل
سيكون مصيرها مجهول؟ السؤال الصحيح هو هل هندا تتخلى عن الجنين،
سيكون مصيرها معروف؟ في كلا الحالتين لا تعرف مصيرها، أم هي خائفة
على ابنها! كيف هذا؟ وهي تعلم أنها ستتركه مع عائلة جميلة تملك حنانًا
يملئ العالم كله ويفيض... وإن كان مصيرها مجهول، وإن كان مصير ما
بداخلها أيضًا مجهول، فهي لا يمكنها أن تقرر إنهاء حياته _ وإن لم تبدأ بعد _
وهي تعلم أن هناك نسبة ضئيلة لوجوده في هذا العالم، قد يصبح عالمًا يومًا
ما أو مستكشفًا، أو فتى أو فتاة صالحة، ألن يرضها هذا؟ بل سيغرقها فرحًا،
وإن كانت ليست موجودة معه! إذن لمَ لا تعطيه فرصة! إن كانت هي وسط
كل ما تكبدته أخذت فرصة للحياة، فلمَ ستمنعه وهي تعلم جيدًا أنه لن يتكبد ما
عانتة!

وأنهت حديثها وهي تلمس بطنها في حنان بالغ قائلة:

"أنا عشت بما فيه الكفاية، الباقي هيبقى ليك أنت، عمري ما هفرط فيك، حتى لو نسبة نجاتك واحد في المية، مش هسيبك غير وأنت على وش الدنيا..."

وتنهدت تنهيدة عميقة، وهي لا تزال تضع يدها على جبينها الصغير جداً، سرحت في اللا شيء مدة ثواني، ثم قررت أن تعمل بنصيحة حماتها وقامت لتصلي وتناجي الله، وهل يوجد أفضل من مناجاة الله؟

بالصباح الباكر:

أتى مروان صباحًا أيقظ سارة بهدوء؛ كي لا تستيقظ والدته النائمة،
على الأريكة القريبة من غرفة سارة، لم يعطها فرصة أن تتحدث، وهي
ارتدت وذهبت معه بهدوء؛ كي لا تعرف حماتها أي شيء عن مرضها، إن
تحدثوا وأيقظها الحديث...

وهم بالطريق رأت الكورنيش، فنظرت له مبتسمة من خلف زجاج
السيارة، وعلى الصوت القراءان وصورة البحر استنشقت هواء نظيف،
وزفرته في ارتياح، ونظرت لمروان الذي كان حالته غير حالها، وكان
معبئ بالأعباء والأحزان، وكان صامت عبوس الوجه، فابتسمت له وهي
تقول:

- عايزة أشوف البحر.
 - مش وقته.
 - عشان خاطري، عايزة أشوفه قبل ما نوصل المستشفى.
- ولكنه أصر، قائلاً:

- قولتلك مش وقته يا سارة.
- وقف العربية... عايزة أنزل.

ثم تابعت، قائلة:

- براحتك أنا كدا كدا مش خسرانة حاجة، يا إما توقف يا إما أنزل أنا...
- ونظر اتجاهها وجدها تمسك مقبض باب السيارة؛ ليقول وهو يضغط فرامل:
- أنتِ بتعملي إي يا مجنونة؟

- هااا؟

- مش فاهم إي الإصرار دا يا ستي! استني أركن، وبعدين نطي
براحتك...

ابتسمت سارة، ثم انتظرت إلى أن أوقف السيارة، وعدت مسرعة
تستنشق رائحة البحر، وبعد لحظات أتى بجوارها؛ لتقول دون أن تنظر له:

- مش هعمل العملية.

تفاجئ مروان، وبدت أمارات التعجب على وجهه، قائلاً:

- إي اللي أنت بتقوليه دا؟

- مروان، دا قراري ومش هغيره، وأنا أمه... مش ذنبه إني تعبانة.

- أنت متأكدة إنك سمعتي الدكتور قال إي؟

- الدكتور دا منه لله... فيها إي لو سابني على عمايا؟

- هااا!

كان مروان متعجب جداً من حالتها الغريبة، ابتسامتها، وهدوء

أعصابها، ذلك جعله يشك أن العلة به ليست بها، ولكنه تابع بعد تعجبه:

- سارة، بلاش جنان بالله عليك، اللي بتعمليه دا فيه خطر على حياتك، دا

مش كلامي دا كلام الدكتور...

- يتكلم براحته...

هنا كان قد خرج مروان عن شعوره وقال بصوت عالٍ، وهو يرفع

إصبعه في تحذير:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، متجننيش عليك يا سارة.

حينها فقط التفتت له، ولازالت ابتسامتها الرقيقة مرسومة، وأمسكت

يده المرفوعة في حنان، وقالت وهي تنظر في عينيه:

- طول عمري وأنا نفسي أبقى سبب في ابتسامة حد، أمنيتي دي بعدت عني أوي، بس دلوقتي أقدر أحققها... هتحقق لما أسيب ابني يعيش، هيعيش وسط أم وأب متأكدة أنهم أفضل بكتير من اللي عشت وسطهم... هيكبر وهيبقى في يوم من الأيام حاجة كبيرة، وقتها هفرح... ولما تكونوا عيلة متكاملة، أكيد هكون مبسوطه، حتى لو أنا بعيدة... مروان، أنا مش لازم أمنعكم من الطفل دا، أنا مقتنعة بكدا، وبالنسبة لي فأنا عشت بما فيه الكفاية، مش هقتل حياة على حساب حياتي... أنا مش أنانية للدرجة دي...

بعدما أنهت حديثها ظل صامت وغاب فيما قالتها، حاول أن يستوعب ما قالتها وما تقوله... ولكنه قال رافضاً كل كلمة:

- مينفعش اللي بتقوليه دا يا سارة...
- كدا كدا دا قراري يا مروان، سواء اقتنعت بيه أو لاء فدا قراري ومش هرجع عنه.
- ارجوكي افهميني، أنا مقدرش أضحي بيكي قصاد طفلي...
- أنت اللي افهمني، دا قراري وأنا مقتنعة بيه ومش هغيره...
- بس دا خطر كبير على حياتك!
- متخافش أنا قدها...

تأفف مروان كثيراً، وجلس يدور حول نفسه تارة، وتارة يجلس على كرسي يفكر في حيرة شديدة، وضع رأسه بين كفيه، لا يعلم ماذا يجب عليه أن يفعل أمام إصرار سارة، هو بالأساس ليس كمروان منذ البارحة، هل ما تقوله سارة حقاً؟ هل هي من تقنعه بهذا؟ ولكنها قاطعت الصمت قائلة:

- مفيش قدامك غير انك توافق... عايزة منك حاجة كمان.

نظر لها بتعجب بالغ، وتساءل:

- إي كمان يا ترى؟

- ماتعرفش أي حد باللي عندي، متخليش حد يشيل همي، أنت بتحسبني
مبسوطة وأنا شيفاك كدا؟ أو عدك يا مروان إني هسمع كلامك في كل
اللي هتقوله ليا، بس المهم محدش يعرف...

حينها لمعت فكرة بعقله، وقال:

- تمام، معنديش مشكلة، بس أنتِ هتسمعي كلامي في أي حاجة؟
- في أي حاجة...

حينها قال وهو ممسك بيدها يجرها خلفه:

- طيب يلا بينا...
- على فين؟

التفت إليها قائلاً:

- مش أنتِ هتحتفظي بالطفل وأنا هكتم على مرضك، مقابل أنكِ تسمعي
كلامي؟
- أيوة...
- يبقى يلا من غير كلام...

وركبوا السيارة وانطلقوا اتجاه المشفى من جديد، ولكن في الطريق
تحدث مروان مع الطبيب وألغى معه موعد العملية، وحجز معه موعد جديد،
ثم نظر إليها قائلاً:

- على الأقل نبدأ بالعلاج، نتمسك بأي أمل...

وتابع وهو ممسك بيد سارة قائلاً:

- بسبب اللي أنتِ بتعمليه دا، أو عدك يا سارة إني هعمل كل اللي أقدر
عليه عشان تبقي كويسة...

نظرت سارة إلى يده الممسكة بيدها بقوة أعطتها أمل، ثم نظرت إليه
مبتسمة وجاوبته بإماعة فرح، وقالت بداخلها "أخيرًا لقيت أمل".

لم تستطع سارة أن ترفض عرضه للعلاج، كي تفي بوعدتها، وكي تزداد نسبة نجاح إنجابها بسلام، حين ذهبوا إلى الطبيب كان في أشد الغضب منهم، وقال لهم بصحيح العبارة، أنه سيرشح لهم طبيبة أخرى لأنه لا يستطيع أن يشرف على حالة محكوم عليها بالفشل، وكان مقصده حالة سارة، ورغم قساوة كلمات الطبيب، لم يعق ذلك الزوجان من التخلي عن قرارهما، وذهبا للطبيبة الجديدة، التي تعجبت في البداية، وحين علمت أن سارة تعلم حالتها بالتفصيل تعجبت أكثر، إلى أن جلست مع سارة وعرفت منها كل شيء، بل ساندتها، وقررت أن تحاول مع الزوجين إلى النهاية...

وطلبت الطبيبة الراحة التامة من سارة، وخطوات وأدوية بسيطة؛ لأجل ألا يُضِر حملها، قرار الراحة التامة هذا جعل الأمر يسير عليهم؛ كي يجدوا حجة ليبرروا مرضها، في ذلك اليوم عندما عادوا، استقبلتهم والدة مروان على الباب، قائلة:

- أخيرًا جيتوا! كنتوا فين طول الوقت دا!

نظرت سارة لمروان في قلق، وهو أيضًا، ولكنه طمئن سارة بأنه سيتصرف، وقال:

- إي يا حجه، مش هندخل من على الباب الأول؟

ثم وجه حديثه لسارة قائلاً:

- على مهلك يا سارة براحة، نسييتي الدكتورة قالت إي؟

لتنفسح الأم على الفور، وساعدت سارة على الجلوس بالأريكة؛ لتقول الأم:

- كل دا عند الدكتورة؟

- شوفتي! وميتين من الجوع، والدكتورة قالت إن سارة لازم تتغذى

كويس...

حدجته سارة بنظرة فازعة فهي ظنت أنه مجرد ثوانٍ وسينطق بكل شيء، ولكن والدته قالت:

- يا خبر! ثواني والأكل هيتغرف.

وجلس مروان بجوار سارة، التي قالت:

- أنت ثانية وهتقول كل حاجة!

- شوفتيني قلت؟

- يا مروان، قولنا إي!

- يا بنتي مش هقول حاجة، مشي الليلة معايا أبوس إيدك...

- سكت أهو.

وأنت والدته بالطعام، وما لبثوا أن أنهوا طعامهم، إلى أن سألتهم:

- فيكوا حاجة غريبة من امبارح، ومش هسيبكوا غير لما تقولوا في إي.

صمت مروان قليلاً قبل أن يقول:

- عندك حق يا أمي، امبارح طلب مننا الدكتور يقابلنا، وقال إن حالة

حمل سارة غريبة، ومش بتحصل غير في نسبة بسيطة، وممكن تسقط في أي وقت...

لتشهق الأم فرعاً، وتنظر إلى سارة في حزن، وقالت:

- يا حبيبتي يا بنتي!

وأخذت سارة بين ذراعيها، وقال مروان:

- عشان كذا رجعنا زعلانين، وحسينا باليأس، الدكتور حولنا لدكتورة

تانية، هتتابع حالة سارة، ورحنالها النهاردة...

- يعني انتوا من الصبح عند نفس الدكتورة؟

- منا مقولتكيش، الدكتورة دي شكلها شاطرة جدًا، والزحمة عندها مقولتكيش، هي ادتنا أمل كبير، بس قالت إن سارة لازم ترتاح راحة تامة ودا عامل كبير في نجاح الحمل...
- أنهى حديثه ولا تزال الأم تحوي سارة وتُطَبِّب عليها في إشفاق وحزن، ثم قالت:
- من النهاردة مش هتقومي من عالسرير، وأنا مش مروحه بيتي غير لما تولدي وأتطمئن عليك...
ثم أسندت سارة وذهبت بها إلى الغرفة، وحين خلت بها الغرفة هي ومروان، قالت له مبتسمة:
- ممثل كبير، أحبك...
فضحك مروان ثم ودعهما ذاهبًا...

مرت الأيام ولم يترك مروان أي يوم من دون أن يأتيها، وكل مرة كان يأتي بشيء جديد، ولا يخرج من هناك سوى وهي تبتسم، عملاً بما قالت له الطبيبة بأن يجعل نفسيتها في أفضل حال، وتابعوا مع الطبيبة، وكانت الطبيبة بالتعاون مع أطباء آخرين يتابعون حالتها بأدق التفاصيل...

وكانت والدة مروان أشد خوفًا على سارة من أي شخص آخر، ولكنها كانت تلاحظ قرب مروان من سارة، ومجيئه كل يوم بعد العمل وذهابه في وقت متأخر، بل كان أحيانًا يبيت معهم، وتأكدت من ذلك حين اتصلت زوجته الأولى منة تشكي حالها ومعاملته لها وحزنها، علمت مدى سوء العلاقة بينهم، ولم تخبرها عما يحدث بينهم؛ رفقًا بها...

حينما حاولت الأم أن تتحدث مع ابنها كان يلقي على منة اللوم في غيرتها المبالغ فيها، وخلافها لو عدها الذي وعدته له، وأنها هي بإصرارٍ

منها أوصلتهم إلى تلك النقطة، وهو لم يعد يحتمل كل ذلك منها حقًا، حينها واجهته أمه بحبه لسارة، ولكنه أنكر إنكارًا تامًا وكان غاضبًا من تفكيرها هذا لمجرد أنه يمتن لمن ستعطيها الطفل، وأخفى في قلبه حقيقة أنها مستعدة بأن تضحي بنفسها لأجل ذلك الطفل، فكيف له ألا يكون بجانبها ويمتن لها لنهاية حياته؟

ولم تجد الأم مفراً من تصديقه، ومحاولة في تهدئة منة، وتسألها الصبر إلى أن تنتهي السنة الصعبة، وكل شيء سيعود كما كان...

ومرت الأشهر، ولم تشعر سارة بسعادة في حياتها سوى في تلك الأشهر، كانت سعيدة حقًا وشعرت أن المعجزة ستحدث، وستنجب في سلام، وازدادت سعادتها حين علمت بحملها بفتاة، وفي أحيان كان يساورها قلق ويأخذها تفكيرها إلى بعيد، وتساءلت هل ستنجو؟ وماذا إن نجت؟ هل حقًا ستتخلي عن طفلتها؟ ولكنها لم تجد يومًا إجابة على سؤالها!

وكانت سارة رغم السعادة التي تشعرها، فحين تساورها الأسئلة، أو يصيبها جزع من حالتها، وتخاف كل الخوف من ألا تنجو ابنتها، كانت تذكر الله كثيرًا، وكان لسانها رطبًا بذكر الله دائمًا...

إلى أن أتى يوم، وكانت بشهرها السادس وشعرت بألم على إثره ذهبت به للطبيبة، ورغم أنه ليس بألم شديد، ولكنه بدت علامات القلق جلية على وجه الطبيبة وكل الطاقم، حاول مروان إخفائها عن سارة، وعلى إثر ذلك أصرت الطبيبة على رقاد سارة بالمشفى، كان من الصعب أن يخفي مروان على والدته حالة سارة الحقيقية، ولكنها لم تعرف شيئًا حين دلفت المشفى سوى أن حبلها صعب للغاية، وفي يوم ومروان بجوار سارة التي يظهر على

قسماتها محاولاتها الفاشلة في حمل الألم، سألت الطبيبة مروان أن يتحدثنا بعيداً عن سارة وأخبرته:

- إحنا عملنا كل اللي علينا، بس منقدرش نجزم إن سارة لو كملت حملها هينجح...
- يعني إي؟
- بالنسبة لحالة سارة فالتقدم إيجابي، بس مش معناه إنها ممكن تنجح...
- طب حضرتك تقترحي إي؟
- أولاً خلينا مقتنعين إن سارة مش هتقدر تستحمل للشهر التاسع، هنزود من الخطورة بالطريقة دي...

وتابعت بعدما رأت معالم التعجب على وجه مروان، قائلة:

- أنا شايفة إنه أنسب حل نستنى لحد ما تدخل الشهر السابع وتولد، إحتمال نجاة الأم والطفل أكبر...
 - طبعاً معنديش مشكلة...
 - لكن دا مش أكيد، الطفلة هنعطها في حضانه لحد ما تتغذى وتبقى كويسة، بس الأم على حسب قوتها هتتجو... مش قدامنا حل غير كدا.
- وأوما مروان في صمت ثم ذهب، كان يظن أن كل شيء سيكون بخير، ولكن يبدو أن حال زوجته أعقد مما تصور، وهكذا اتفق مع الطبيبة؛ كي تلد سارة مبكراً أملاً في أن ينجو كلاهما...
-

علمت سارة أنها ستنجب مبكرًا، ولكنها لم تعلم تفاصيل أكثر، ومرت الأيام إلى قرابة الشهر، كان قد تعلق مروان بالطفلة الوحيدة له تعلقًا شديدًا، وحين علمه بأن احتمال نجاتها ضعيف، وكُلَّ كل أمره لله، كان يدعو كثيرًا، ويجلس جوار سرير سارة_ المثال الوحيد له في الشجاعة والصبر والقوة_ بالساعات وبين يديه مصحف قد ختمه ثلاث مرات إلى الآن، لقد تفرغ تمامًا لسارة وابنتها، وأصبحتا كل ما يشغل همه، وأصبح يتهرب من والدته وزوجته الأولى؛ كي لا يخبرهما أي شيء ويقطع الوعد الذي وعده لسارة...

لذا من تهربه من أمه، ورؤيتها بأمر عينيها أسلوبه معها، خيل للأم أنه قد هام في عشق زوجته الثانية، وتخلّى عن الأولى، أحزنها حال الأولى أكثر بكثير، وأصبحت تسخط على اليوم الذي وافقت فيه بزواجه من حبه الأول، وأصبح بداخلها اقتناع، أن الحب يأتي بالمعاشرة، كما يظهر أمامها مروان وسارة، فهو إن لم يكن تزوج حبه، فكان قد تزوج غيرها وأحبها وأنجب منها، دون اللجوء إلى الزواج بالثانية، واتضح لها أن الأمر لن يكون بتلك البساطة عندما تنجب سارة، فهل ستتركهم وشأنهم؟ هل ستتخلّى عن ابنتها بسهولة؟ بل السؤال الحقيقي هل ستركها مروان ترحل؟ ولكنها لا تعلم أن كل ما تعتقده وتسأله صحيح، في حال إن نجت سارة!

أما منة فقد جرح كبرياءها كثيرًا وتحاملت فوق طاقتها أضعافًا، وآرقها الحزن والبكاء، وشكت للأصدقاء فلم يفيدوها سوى بالطلاق، والخروج من تلك العلاقة بفتات كرامتها، لم تستطع أن تشكو للأهل سوى لأختها التي أيدت فكرة الطلاق، وكيف تشكو لوالديها، وهي من أصرت على ذلك الحال من البداية! وهي من شجعت زوجها وحثته منذ أول يوم! ليتها لم تصر كل ذلك الإصرار، أصرت فقط حين شعرت بكرامتها تنكسر عندما رأت نظرات الحزن من والديها، وحديث مكتوم من والدي مروان، وما كسر لها حقًا حينما رأت حزنًا بادٍ على زوجها، وأصبحت هي من تصر على ذلك

الأمر وتقسو على نفسها وقلبها، فقط لأجل إسعاده، هي من جلبت التعاسة
لنفسها، وها هي تدفع ثمنها، هكذا اقتنعت...

وها هي سارة في حبرتها تتأوه من الألم، ولم يتبقى سوى ساعات إلا
على عملية لها إما تنجح أو تفشل...

وكان بجوارها مروان، حين أشارت له ليقترّب، فاقترّب في الحال؛ لتقول
بصوت ضعيف متأوه من الألم:

- بإذن الله ربنا هينجي حبيبة، وهتبقى أفضل أب ليها، وهتبقى في أحلى
عيلة أنا واثقة من كدا، متزعلهاش مع إني واثقة أنك عمرك ما
هتزعها...

- لي بتتكلمي في الحاجات دي يا سارة؟ كل حاجة هتبقى كويسة، أنا
متأكد...

- شكرًا يا مروان على وقفك جنبي...

أدمعت أعينه عندما سمع منها الشكر الذي كان يعلم أنه من أعماق
قلبها، وقال بعد فترة:

- أنت محتاجة ترتاحي يا سارة...

ودثرها بالبطانية وعاد إلى كرسيه يتظاهر بالقوة، وهو بداخله خوف
وحزن كبير، ومضت الساعات وهو يصلي ويدعو ويقرأ قرآن، وهي لم
تترك الذكر الذي اعتادت عليه منذ أشهر "لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت
من الظالمين".

وأتى موعد العملية وأنت والدة مروان وزوجته، ليروه يطمئن سارة
ويجلس بجوارها يقرأ القرآن ويدعو، من يعرفه جيدًا ويعرف قصته ولا

يعرف أي شيء عن سارة يظن أنه يتلفه على قدوم مولوده، وهكذا ظنت والدته، وزوجته، التي أحرق ذلك المشهد قلبها، وظنت الظنون...

وكانت آخر كلمات تسمعها سارة هي من مروان، قائلاً وكان يجرها بالكرسي المتحرك هي:

- متقلقيش يا سارة أنتِ وحببية هتبقوا بخير...

وذهبت سارة يجرها الكرسي المتحرك، إلى داخل اللا معلوم، وقد سلمها مروان إلى قدرها المحتوم، وجلس إلى أقرب كرسي يترقب الساعة والدقائق والثواني التي تعبر كالدهر، وبعد دقائق سمع منة تقول لأمه:

- عاجبك يا حماتي اللي بيعمله دا! وقلبي المولع مش حاسس بيه؟

صمتت الحماة ثوانٍ وهي تنظر إلى ابنها، وقد بدأ يراودها الشك منذ أيام أنه يوجد شيء لا تعلمه وهو ما يجعل ابنها شارد وخائف كل ذلك الخوف، وقالت:

- أكلمك بصراحة، حاسه إن في حاجة، وهو مخبي علينا!

- زي إي يا ماما؟

- يعني مش غريبة كل شوية يقول لسارة متقلقيش كل حاجة هتبقى كويسة! كأنه آخر مرة هيشوفها.

- يا ماما أنتِ عارفة إنها تعبانة من أول الحمل.

وتابعت وأدمع بعينيها قائلة:

- بعدين دا مش مبرر، لتعلقه الشديد دا!

لم يستطع مروان إكمال جلسته بجوارهم وسماعه حوارهم التحليلي، وفر هاربًا عن أصواتهم، حينها حدجته منة بنظرة لوم وحزن وهوان، وحاولت أن تتحدث مع حماتها لإضاعة الوقت...

ومر الوقت كالسحفاة أو أقل سرعة، حين مرت الساعتان خرج الطبيب المسؤول عن توليد سارة ومن خلفه الطبيبة المسؤولة عن حالة سارة، وكان بين يديها الطفلة الصغيرة وكانت حية...

حينما رآها فكأنما ردت إليه الحياة من جديد، وتلونت الأشياء من حوله، وعمت الفرحة عليه هو وزوجته الأولى ووالدته، وفي أذنها اليمنى أذن، وفي أذنها اليسرى أقام الصلاة، وما لبث أن انتهى إلا وانطفئت أضواء الفرح وبهتت الألوان، حين قالت الطبيبة:

- قولت لازم تشوفوها قبل ما تدخل الحضانة، بنتك مكافحة زي مامتها...
- هتقعد قد إي في الحضانة؟
- مبدئيًا أسبوعين، وبعدين هنشوف.

قالت ذلك ثم ساد الصمت، وأنت على باله سارة التي أنسته فرحته برويته أبنته أن يسأل عنها، وتساءل وقد وقع قلبه في هوة:

- طب، وسارة؟
- العملية نجحت، عايزة أقولك إني مشوفتش في قوة سارة، هي دلوقتي دخلت العناية المركزة.
- عايز أشوفها...

قالها بسرعة حين أنهت حديثها، فأومأت له الطبيبة وأعطت الطفلة للممرضة؛ كي تهتم بها، وذهبت وذهب خلفها مروان ومنة ووالدته، ورأى مروان سارة من خلف الجاج نائمة كالملاك، وقالت الطبيبة:

- مش هينفع تدخل دلوقتي، بس تقدر تشوفها من هنا...

شكرها مروان كثيرًا وذهبت الطبيبة، ووقف مروان يناظر سارة من خلف الزجاج وقد ارتاح لرؤيتها، ورؤية الأجهزة التي تخبره أن قلبها ينبض، وأنه لا يزال هناك أمل...

أما منة فلم تحتمل ذلك المشهد وذهبت تبحث عن الحضانة، كي تلمح الكائن البريء والصغير، الذي نجح في الخروج إلى النور، واهتدت إلى ضالتها، وهناك بكت حزناً وألماً...

بجوار مروان كانت زينب والدته، وضعت يدها على كتفه قائلة:

- مروان، ألف مبروك يا بني...

قال مروان دون أن يحيل بنظره عن سارة:

- الله يبارك فيكي يا ماما...

- طب وبعدين! مش كفاية بقي؟

- كفاية إي؟

- مش كفاية عذاب لمنة؟

- قصدك؟

- أنت عارف قصدي يا مروان...

حينها تنهد وفكر بداخله أما حان الوقت أن يخبرهم بكل شيء؟ علَّهم يتفهمون قلقه وحزنه، وشعوره بالمسؤولية والامتنان، لقد أوفت سارة بوعددها، وأنجبت له ابنته سالمةً غانمةً، وهو أوفى بوعدده بالكتمان إلا أن تنجب، فتساءل وقد أقر في نفسه المصارحة:

- هي فين منة؟

- قالت هروح أشوف حبيبة...

حينها ألقى نظرة على سارة، وذهب إلى منة...

وبحث مروان على منة إلى أن وجدها، وذهب إلى جوارها وتحدث قائلاً:

- منة...
- مروان! إي اللي جابك؟
- سألت عليكي، أمي قالت لي أنك هنا.
- حينها التفتت له قائلة بسخرية:
- غريبة يعني.
- أنا عارف إني زودها كثير أوي معاك، بس أظن جه الوقت إني أقولك كل حاجه.
- بجد! شابوه، كويس أنك عارف أنك زودتها.
- صمت مروان فتحدثت منة متابعة:
- عايز تفهمني إي بالضبط؟ ما كل حاجة واضحة...
- مش فاهم.
- ما أنت لسة مأكد إنك مهتم بسارة زيادة عن اللزوم.
- أكيد مش هعمل دا من دماغى...
- حينها أدمعت أعين منة دون قصد منها، قائلة:
- اه، طب كويس، ربنا يوفقك.
- تساءل في حيرة من أمره حينما شعر أن زوجته قد لبس عليها الأمر:
- أنتِ فهمتي إي؟
- مروان، هسألك سؤال وكل اللي عيزاه منك إنك تجاوبني بكل صراحة...
- أوما لها؛ لتسأله:

- في حاجة مخبيها عني بخصوص سارة؟

حينها أصاب الصمت مروان، شعر بجمود لسانه، وتساءل هل منة تعرف كل شيء؟ صراحةً ألكمه سؤالها، وقبل أن ينطق لاحظ انفعال منة بسبب صمته، وقالت:

- يبقى شكى طلع في محله.

وهمت ذاهبة في غضب، وحينها أدرك أنها تقصد شيء مختلف عما هو يخبأه:

- منة أنتِ فاهمة غلط، استني أرجوكي... متمشيش...

وفي حين أنه كان يعدو خلف زوجته، وجدت والدته تهزول نحوه ووجهها مصفر وكأن الدم كله اختفى من وجهها، وقالت:

- مروان... سارة...

حينما قالت ذلك فقط، هوى قلبه إلى جب عميق، وعدى ناحية سارة في هلع، وكلما اقترب وجد أعداد الأطباء والمرضين يتزايد، ورأى من خلف الزجاج سارة كالميتة وحولها الأطباء يحاولون إنعاشها، وحين فتح باب الغرفة لتخرج ممرضة مهروعة أصمه صوت الجهاز المعلن عن توقف القلب!

بكت أعينه وتخبطت أيديه بالزجاج، وفقد أعصابه، قائلاً بصوت عالٍ:

- سارة، فوقي يا سارة، مستحيل...

كانت والدته منصعة مما يحدث ومنة مفجوعة مما تراه، وأدركت أن الأمر أكبر بكثير وأكثر خطورة مما تظن وتعتقد، ورأوا جهاز صدمات القلب الكهربائي يدخل للغرفة حينها أدرك مروان أنهم فقدوا الأمل ويجربون آخر شيء قد ينجح وقد لا ينجح...

ازداد جنونه، وأصبح يصيح على كل طبيب وممرض يدخل أو يخرج
للغرفة، ويقول:

- لازم سارة تطلع حية، لازم تعيش، أعملوا أي حاجة!
- مش أنتم قلتتم أنه كل حاجة كويسة! يعني إي؟

وتابع على أعصاب مشدودة، محاولات الطبيبة في إنقاذ قلب السارة،
حاولت المرة الأولى بجهد منخفض، لم ينتج عنه شيء، فضاغت الجهد
وحاولت مرة أخرى بلا فائدة، ثم الثالثة بضعف الجهد... بلا فائدة...

ويئست الطبيبة، ولكن مروان لم ييأس، وكانت تراه من خلف الزجاج
منهار، وفهمت من حديثه الذي لم يصل صوته لها، أنه يترجاها للمحاولة
مرة أخرى، بل مرات، حين شعرت بالحزن على حاله وهو يرى زوجته
التي ساندها طوال هذه الأيام تموت أمامه، وهو لا يستطيع أن يفعل أي
شيء، فقررت أن تجرب للمرة الأخيرة بأعلى جهد، اعترض الممرضون،
ولكن هذا لم يجعلها تتراجع، وقررت أن تعطي سارة الفرصة الرابعة...

وفي المرة الرابعة عاد قلب سارة، لم تصدق الطبيبة، ولم يصدق
مروان، بل لم يصدق كل من شاهد تلك المعجزة، وأصبحوا يتحاكون بها إلى
اليوم...

وزفر مروان حمل كبير، وشكر ربه كثيرًا وسجد له شكرًا، وحينما
خرجت الطبيبة من الغرفة قالت:

- توقف قلب سارة مكنش متوقع، بس اللي مش متوقع المعجزة اللي
حصلت...

قالتها الطبيبة بفرحة، ولكنها تابعت:

- بس دا ما يمنعش إن الخطر راح، لازم نتابع حالة سارة خلال الـ 24 ساعة اللي جايين، لو فاقت يبقى كل شيء تمام، لو مفاقتش يبقى كل دقيقة فيها خطر...

أوما مروان، وذهبت الطيبية متمنية لسارة القوة والإفاقة، أما والدته ومنة النفن حوله؛ كي يفهم كل شيء غامض ويكشف لهم ما خبأه عنهم منذ أشهر...

ومرت ساعات، حكى فيها مروان كل شيء، وسمع فيها كلمات العتاب من أمه، وبدأت تبدي له عن شعورها بوجود شيء ما، لكنها لم تستطع أن تتبين شيء، وسمع كلمات الاعتذار من منة، التي تغيرت نظرتها، وشعرت بالخل، ولامت نفسها على تفكيرها الأناني، ولكن أنى لها أن تعرف كل هذا؟ فهي لا تقرأ الطالع ولم تحلم بروية، وقد أعمتها الغيرة.

وبداخل منة شعرت بالأسى على سارة وقررت أن تصبح بجانبها إن فاقت، وتصبح لها أخت، فهي تعلم وحدتها، على الأقل ستفعل هذا إلى أن تتحسن، فهي أخيراً تبينت مشاعر زوجها، وأنها هي من كادت تهدم بيتها بنفسها، وأدلت بما داخلها لحماتها، وهي الأخرى ربطت على كتفها بحنان قائلة: "ربنا يكملك بعقلك يا بنتي".

واتفقتا أن يصبحن خير عون لسارة إلى أن تشفى، إن أفاقت.

وأفاقت سارة بحمد لله وعلى خير بعد 8 ساعات من الدعاء والصلاة ممزوجة بتوتر وخوف، فهذه هي الساعات الحرجة...

أفاقت على صوت همسات وببطء فتحت أعينها المرهقة، لم تستوعب
بالبداية ماهية هذه الهمسات أو أين هي الآن، وجالت بأعينها حولها فرأت
مروان يجلس بجوارها، وهناك على المقعد تجلس والدته وزوجته، التقت
أعينها بمنة، وحينما لاحظت إفاقتها قالت وهي تندفع مسرعة ناحية سارة:
- سارة فاقت.

تجمع حولها الجميع في لهفة، قالت بصوت منخفض ومتعب:

- أنا فين؟

- في المستشفى...

أجابها مروان، وبدأ وعيها يحاول استيعاب ما حولها ثم وضعت يدها
على بطنها المنفوخ، وحينها تساءلت بلهفة:

- أنا ولدت؟

وجالت بأعينها حول الغرفة، وتابعت:

- هي فين؟ عايزة أشوفها...

ربطن والدته مروان على كتفها في حنو قائلة:

- هي بخير، الاتاحي دلوقتي ولما تفوقي هتشوفها بإذن الله...

وابتسمت منة قائلة:

- حمدًا لله على سلامتك.

- الله يسلمك.

وطلب فارس الطبية، وتأكدت الطبية من صحة سارة، وكانت في أشد
فرحها من استيقاظ سارة، فالمعجزة تحققت!

ومرت أيام استعادت فيهم سارة عافيتها ببطء ورأت ابنتها، واستمدت قوتها الخائرة من ذلك الكائن الصغير، أول ما جال بخاطرها حين رأت ابنتها، كيف لها أن تتركها؟ هل ستتخلى عنها حقًا؟ لقد تعلقت بابنتها كثيرًا، وقاسمتها كل شيء حتى مرضها، لقد كانت صديقة كفاح، هي من كانت تقوى بها عند ضعفها، كيف لها أن تترك قطعة من روحها؟ كيف؟

وعلمت سارة أيضًا بالمعجزة التي يتحدث بها كل المشفى، ودلف غرفتها كل طاقم الأطباء والممرضون؛ كي يروا تلك التي أفاقت بعد فقدان الأمل...

يبدو أنها كانت تظن أن حياتها انتهت واستسلمت، ولكن لا تزال حياتها في بداية الطريق، هكذا قالتها لها طبيبة عجوز، وأخبرتها أيضًا أنها على اقتناع تام، أن الإنسان حين يكون في مرحلة بين الحياة والموت كالتى مرت بها سارة، يكون هو المسؤول الأول والوحيد في استمرار حياته أو الاستسلام "كنتي مستسلمة، ورجعتي لأنك لقيتني إن حياتك لسة فيها اللي هيتعاش" ختمت السيدة العجوز حديثها مع سارة بتلك الجملة وذهبت، وسارة كانت متعجبة مما حدث لها، ولكن أكثر تعجبها هو حديث تلك الطبيبة، فهل ما قالته حقًا!

وباليوم الخامس تحدثت الطبيبة مع سارة ومروان، قائلة:

- هنبداً العلاج من أول بكره يا سارة، مش هنبداً بالكيمائي على طول...

ونظرت إلى سارة في أسى قائلة:

- هتضري تتخلي عن رضاعة بنتك، بسبب الأدوية...

- مفيش مشكلة يا دكتورة، أنا هجيب أحسن حاجة لحبيبة، المهم سارة...

ولكن سارة قالت للطبيبة برجاء:

- ممكن أضعها قبل أي حاجه؟

نظرت لها الطيبة في إشفاق، قائلة:

- حاضر يا سارة هناول...

وبالفعل استطاعت سارة أن ترضع ابنتها، وشعرت بشعور لم تشعره من قبل، شعور لا تستطيع أن تصفه، شعور جميل، ولكنه ممزوج بالحزن... وأرضعتها إلى أن نامت، وكانت مستعدة أن تبقى بتلك اللحظة العمر كله، وسحبها الطيبة منها، وكأنها تسحب روحها، وذلك جعل أمر فراقها لابنتها المحتوم مستحيل بالنسبة لها، وقبل أن تأتي الطيبة وتشرح لهم خطة العلاج الكاملة بالصباح، وقد كان مروان يبيت ليله معها، لاحظت سارة نومه؛ فاستجمعت قواها وقررت الرحيل، هذه هي فرصتها الوحيدة...

سترحل؛ كي تنهرب من لحظة الوداع...

سترحل دون أن تودعه؛ كي لا يصر عليها، يكفيه ما حل على رأسه بسببها، وهكذا كان الاتفاق...

سترحل قبل أن تودع ابنتها؛ كي لا تتفكك قطع قلبها التي تمثل الجمود إلى أجزاء...

هكذا بررت لنفسها الرحيل وهكذا اقتنعت أن هذا ما يجب أن يحدث لا محالة، عليها أن ترحل...

وعدت عدتها، وتحاملت على نفسها، ورحلت دون أن تنظر خلفها، وحاولت أن تتواري، ورغماً عن وجهها المعروف بالمشفى كلها سيجعل الأمر صعباً عليها، لم تتخل سارة عن قرارها، ولم تتوقف لمن يناديها، وخرجت من باب المشفى مودعة ذلك الفصل في حياتها وذهبت...

كانت تقف تنظر إلى عربات الطريق؛ لتعبره حين يخلو، عندما جاءها صوت تعرفه ينادي:

- سارة...

وتوقف صاحب الصوت بجوارها وهو يلهث من العَدُو، قائلاً:

- رايحة على فين كدا؟

- أنا كدا أتميت مهمتي، متتعيش نفسك معايا...

- في حاجة حصلت؟ إي اللي خلاك تتراجعي!

صمتت ونظرت لأعينه ودمعت أعينها "لأجل ابنتي أفعل هذا، لأجل

ابنتي أهرب" ولكنها قالت:

- مفيش.

حينها أمسك يدها قائلاً بعزم:

- خلاص مش هسيبك تمشي، أنا عارف اللي بتفكري فيه، ومن الآخر

كدا مش هسيبك غير لما ترجعي زي ما خدتك...

حديثه هذا جعل أدمعها تهبط عنها عنوة، قائلة وبداخلها شعور لا

يوصف بالتحامل:

- أنت مش مضطر تهتم بيا.

قال مروان منهياً أي حديث قادم:

- الموضوع دا بالنسبة لي منتهي، احنا قطعنا وعود لبعض أنا وفيت

بو عدي، فين وعدك؟

وقبل أن تجاوبه تابع:

- وبعدين لو سبتك تمشي هتروحي على فين وأنتِ تعبانة كدا؟ أهلك؟
- مسألوش عليكِ طول الوقت اللي فات دا، هيهتموا بيكي دلوقتي؟
- بس...

وقبل أن تجاوبه أتاها صوت أنثوي من خلفها يقول:

- مفيش بس يا سارة، أنتِ لازم تتعالجي، وتبقي كويسة، أنا ومروان هنكون جنبك، مش هنسيبك غير لما تخفي...

والتفتت سارة للصوت لتجدها منة زوجة مروان، وكان هذا أول تعامل معها، ونظرت إلى أعينهم وجدت إصرارهم، وهي بالأساس قد جمعت شتات قوتها لاتخاذها ذلك القرار، وها هم بعثروه بإصرارهم، فعادت معهم أدراجها، وتتساءل بعقلها ما بال تلك العائلة؟ هل كل العالم مثلهم، وبيئتها هي الغربية؟ أم هم الغرباء في ذلك العالم! ولكنها لم تعرف حقًا...

ومضت أيام أخرى وبدأت رحلة العلاج، وفي أول جلسة لها بالكيمائي كان بجوارها زوجها، وكانت تكتم الخوف بداخلها، وتبتسم لكل من هم حولها، ورغم ذلك لم تستطع أن تنسى ذلك اليوم مهما مرت السنوات، أعراضه لا تزال راسخة بعقلها، وحين تستذكره يؤلمها قلبها وكأنها في ذلك اليوم من جديد، ولا تنسى تحاملها على نفسها؛ كي تظهر قوية...

وفي رحلة العلاج كانت تضعف بالمنتصف وتبكي وتفقد الأمل في العلاج، بل بكل شيء بالحياة، وتقول الموت يلاحقني، ليس خوفًا، ولكنه مصيرها الذي تشعر به قريبًا، لم يتركها مروان لحظة وكان معها طوال الأيام، وإن لم يكن هو فأمه، أصبح يعلم من حالتها إن كانت في نوبة حزن أم لا، وحين تأتيها يخرجها عنها، إنه يعلم مدى حبها للبحر ورائحته فيأخذها إلى هناك، وإن أفضت له بأمنية لها أو مطلب وهذا نادر كان يحققها لأجلها،

وكان يستكشف معها أماكن جديدة، أمضى معها رحلتها كلها، بحقيقة الأمر
لقد تعلق به، وهو أيضاً...

أما حبيبة الطفلة التي خرجت من رحم معجزة، خرجت من المشفى بعد
شهر ونصف من النضال مع الحياة، وفي النهاية رحبت، لم تستطع سارة
الاعتناء بها بالطبع واعتنت بها منة بكل حب، كانت منة تراها كابنتها أو أشد
وضعتها في بؤبؤ عينيها، واعتنت بها بكل حب وحنان...

ومرت أيام سارة بين قوة وضعف، وأمل ويأس، وقاسمها مروان كل
ذلك، ولم يتخل عنها، بل تعلق بها...

وبدأ شعر سارة يسقط، ومع كل شعرة تسقط يسقط معها جزء من
قلبها، وتزداد حزناً، وفي ذات يوم كانت تقف أمام المرأة وضعت يدها بين
خصلات شعرها لتخرج يدها محملة بالشعر الساقط، ألمها ذلك وهبطت
دمعة عنوة منها، لتتفاجأ من مروان خلفها، يقول بحنو:

- جميلة في كل حالاتك يا سارة.

التفتت له تقول في حزن:

- حتى وأنا تعبانة؟

- حتى وأنتِ تعبانة...

وتابع وهو يمسد بيده على شعرها الخفيف:

- حتى وأنتِ من غير شعر...

حينها بكت أكثر ومن بين أدمعها قالت:

- متسبنيش يا مروان أنا محتجالك...

أخذها بين أحضانه قائلاً في نفسه " وكيف لي أن أتركك وأنتِ من
أدخلتني إلى حياتها، وكيف لي أن أبتعد عنك بعد أن أصبحتِ جزءاً لا يتخلى
عنه بحياتي!" ولكنه قال يعبر عما بداخله، وكان من أعماق قلبه:

- عمري ما هسيبك يا سارة...

حينها شعرت بالأمان وابتسمت وأغمضت أعينها...

ومرت الأيام بخلوها ومرها، وبين أحيان تهزم سارة المرض وأحياناً يهزمها، ولكن ما تلبث أن تقوم من جديد وتواجهه، وفي ذات يوم من أيام تغلبها على المرض، وبعد فترة طويلة لم تمس فيها قدمها أرض المطبخ، قررت أن تدخله تعبيراً لها على امتنانها، وبمساعدة المساعدة فعلت من الطعام ما يحبه، لقد عرفت أطعمته المفضلة من أحاديثه معها، ومن المعاشرة...

وحين عاد كانت قد وضعت المائدة بطريقة جميلة، وقد فرح كثيراً من المفاجأة أكثر مما تتوقع، وقال بعد أن أنهى الطعام:

- إي الجمال دا يا سارة؟ إي الحلاوة دي؟

ابتسمت سارة قائلة في سخرية:

- دي أقل حاجة عندي...

- يا ربي عالتواضع، طب أنا مستني تخفي وأشوف بقى أكثر حاجة عندك...

- بإذن الله...

حينها تالأأت أعين مروان وقال وهو يقترب منها:

- عايز أعرفك حاجة...

وأمسك يدها بقوة قائلاً:

- عارفة أيدك دي؟ أنا مستعد أمسكها العمر كله...

- يعني إي؟

ترك مروان يدها قائلاً:

- طب والله إنك قفل، مفيش شوية ذكاء؟

ابتسمت سارة دون حديث، والتفتت تلملم أطباق الطعام، وتبعها مروان يساعدها، لم تكن سارة على غير علم بمعنى ما يقوله مروان، وتسارعت ضربات قلبها، في الحقيقة أنبها ضميرها، فهذه ليست المرة الأولى لمروان، ولا هي بلهاء لتلحظ تغير أفعاله عن ذي قبل؛ لتلحظ إن كان يعاملها إشفافاً أو عن حب، وها هو يظهر الحب ولا يخفيه، ذلك ما جعل ضميرها يؤنبها وشعرت بالخيانة لمنة، فتظاهرت باللامبالاة؛ كي تتهرب، ستوفي وعدّها الذي قطعتة لنفسها يوم أن أعادتها منة إلى المشفى، لن تحبه وإن كان آخر رجل بالكون...

ومرت أيام أخرى فيهم انتكست حال سارة وانتقلت إلى المشفى، وعادت حالتها أسوأ، ولكنها أصرت العودة إلى منزلها؛ حتى تشعر بالراحة التي لا تشعر بها سوى بمنزلها، بغرفتها وعلى سجادة صلاتها، ودعائها وذكرها، الذين لم تفارقهما طوال فترة علاجها، وفي ذات يوم عند أذان المغرب وكانت لا تزال في حال انتكاس، وفقدان الأمل حتى أنها بدأت تتخاذل في أخذ الأدوية من دون أن يعرف أحد، تعلم أن ما تفعله خطأ، ولكنها لا تستطيع أن ترى ذلك فتلك الأيام تجعل العالم كله مظلم...

ذهبت لتتوضأ وارتدت اسدالها وقبل أن تصلي طلب منها مروان الصلاة جماعة، وتحجج بأنه لن يلحق بالجماعة بالمسجد، فوافقت وصلت خلفه، وفي حقيقة الأمر هي تحب الصلاة خلفه، فمروان صاحب صوت جميل، وخشوع رهيب، وآياته يختارها بعناية حين تصلي معه، حتى يشعرها أن الله معها وأن الله على كل شيء قدير، بالطبع تعلم هذا، ولكن أحياناً نحتاج من يذكرنا بثوابت الحياة؛ كي نعيد الشغف ونملئ طاقة روحنا المتهاكة...

كان مروان أيضًا خاتم للقرآن ولولا انشغاله لما تناساه، وحين أنهوا الصلاة وقالوا الأذكار وصلوا ركعتين السنة، سأل مروان منة:

- أخذتي دواكي؟

أبعدت سارة ناظرها عنه، وقالت:

- اه... لاء...

- اه ولا لاء يا سارة؟

قالت سارة بتلعثم كابنة تتهرب من والدها؛ لأنها فعلت شيء خاطئ:

- نسيت...

قام مروان من على سجادته وهو يقول الحوقلة، ثم سألها:

- فين الدوا.

- شوفه في درج التسريحة كدا...

- مفيش حاجة فيه...

والتفت إلى سارة متسائلًا:

- وديتيه فين يا سارة؟

- مش فاكرة...

- طب قومي دوري معايا...

أمسكت بالمصحف قائلة:

- مش مهم بقى يا مروان...

- سارة... طلعي الدوا...

قالها بغضب حقًا، لتعترف على الفور:

- أظن في درج الكوميدينو اللي في الناحية اللي بنام فيها...

وعادت تقرأ القرآن، ليقول مروان وهو متجهة ناحية الدرج:

- معلش يا سارة استحملي، عارف أنك مش بتحبي الدوا بس دا لازم...
وفتح الدرج ووجد به الدواء ولاحظ أن به الكثير من الأوراق، فسارة
تحب أن تجمع الأوراق والذكريات التي تذكرها بأيامها السعيدة، وأحياناً
تضع فواتير من حقيبتها بدرجها وتنسى أن تلقيها، لذلك كان درجها معبئ
بالأوراق، تعجب مروان وضحك من تصرفات سارة التي تشعره أنها طفلة،
وأحضر سلة القمامة وبدأ يأخذ الأوراق ويلقيها، وفي وسط ما يفعله وحين
انشغالها بالقرآن، قال:

- إي الورق دا كله؟ دا ملئ الزبالة!

حينها رفعت سارة عن المصحف في صدمة، ولم يهملها أي ورقة مما
بالدرج، أكثر من تلك الورقة التي تحتفظ بها كعينها، وعدت مسرعة إليه
وباعدته بيدها متلهفة، وبحثت بالدرج الفارغ فلم تجده، وبهيستيرية، أفرغت
محتويات القمامة وبحثت عن مرادها إلى أن وجدته وقبضتها في يدها بأمان،
وقالت:

- الحمد لله...

ثم نظرت إلى مروان بغضب قائلة:

- حرام عليك، انت بترمي الحاجات دي لي؟
- هو في إي يا بنتي لا دا كله!
- إحمد ربنا إني لقيتها بس...
- هو إي؟
- ورقة عادية...
- اه وإي كمان؟
- مفيش، حاجة مش مهمة واسكت بقى، سيبيني أرجع ورقي مكانه...

- عايز أشوف اللي قلبتي عشانه الزبالة...
- مش قولت مش مهمة؟

ومد يده في إصرار، قائلاً:

- هاتي يا سارة...
- حاجة متخصصكش، في إي بقى!
- سارة هاتي، ياما أنت عارفة إني هاخذها غصب عنك...

حينها استسلمت وأعطت له الورقة، التي تحتفظ بها منذ عام ونصف، وفتحها مروان وتفاجئ بما داخلها وهي نتيجة ثانويتها التي لم تخبره عنها أبداً، لقد تفاجئ مروان كثيراً وفرح فرحة كأن نتيجتها قد ظهرت الآن وقال بأعين مليئة بالفخر:

- أنا فخور بيكي جداً يا سارة... بس هو لي مكانش عندي علم بيها؟
- مكنش وقته
- هو إي اللي مكانش وقته؟
- أنت فرحان ولا زعلان؟
- أنت بتهزري صح؟ جايبة المجموع دا كله وتقول زعلان!
- وهي فادت باي يعني؟

شعر مروان بحزنها العميق، وبحلمها البعيد، متسائلاً:

- كنت عايزة تدخلني إي؟
- كنت عايزة أدخل كلية الطب البشري وأتخرج منها واشتغل طبيبة قلب... المرض اللي ولدتي اتوفت بسببه وهي بتولدني....

شعر مروان بأنه فتح عليها جراحاً، فقال لينسيها همها، قاطعاً وعداً:

- دكتورة سارة، من النهاردة اسمك الدكتورة سارة... أوعدك يا سارة
إنك أول ما هتخفي هتكملي تعليمك، ومش هسكت غير لما تبقي
دكتورة قلب زي ما أنتِ عايزة...

حينها أدمعت أعين سارة وشعرت أنها تحلم بأنه قطع عليها وعدًا،
وأدركت أن الله يعوض ولو بعد حين، ولكن بحكمته وأقداره... وتساءلت:

- بجد ولا بتهزر؟

- وأنا من أمتي هزرت معاكي في وعد يا سارة، دا وعد ووعد الحر
دين... أنتِ بس خليكى قوية وأقفي على رجلك من جديد، واهزمي
عدوك، وقتها هتقدري تحققي كل أحلامك، طالما فضلتى متمسكة
بالأمل... يبقى أوعي تسيبيه

وقام من على الأرض وهو يقول:

- يلا بينا...

- على فين؟

- عشان نحتفل...

لم تفهم سارة وفهم هو من تعابير وجهها، فقال موضحًا:

- نحتفل بنتيجتك...

- بس دي عدى عليها كتير...

- بالنسبة لي أنتِ ناجحة النهاردة...

أومأت له وقبل أي شيء صلت لله ركعتي شكر وقد امتلئ قلبها بالأمل
من جديد، وبكت وشكرت الله كثيرًا، بيد أن حلمها الوحيد الذي تمنته، وظنت
أنه دفن، يخرج من التراب ببطء، وقد يصبح حقيقة يومًا ما...

ومن بعيد تابعها مروان بحنو وابتسامة لم تهبط من أعلى شفتيه...

ومر عام منذ اليوم الذي ولدت فيه سارة ابنتها، وحدث الكثير من التغيرات، بالنسبة لسارة فقد تحسنت وبدأ شعرها يكبر من جديد، وكانت أجمل أيامها حين عاشت معها حبيبة أسبوع كامل، ولكن سرعان ما انتهت أيامها هذه وبدأت بالانتكاس من جديد والانطواء على نفسها، بدأ ذلك الأمر بزيارة مفاجئة من خالها الذي زارها حين أحضر لها نتيجتها، في بداية زيارته اعتذر عن عدم تواصله معها، وكانت سارة تعذره فلدته مشاغل وهموم تثقل كتفيه كثيرًا، هي من اعتذرت منه لتقصيرها في التواصل معه، وعلم منها ما مرت به وبكى أمامها ولم يستطع أن يمنع دموعه، وتأسف كثيرًا وترحم على أخته التي عانت في مثل سنها هكذا، ولكن الفرق أنها استسلمت...

أنبأها خالها بأن زوجة والدها على فراش الموت بعد أن صدمتها سيارة في ذات يوم وهي تعبر الطريق ذاهبة إلى زوجها، زوجة أبيها التي ما إن انقطعت سارة عن الاتصال؛ لأجل مرضها، وبسبب منع مروان لها؛ لأنه يعلم جيدًا حالتها بعد كل مكالمة، لم تتصل لاهي أو والدها، علمت أن والدها باع سيارته، مصدر رزقه الوحيد؛ بسبب تكاليف علاج زوجته العالية... حينها وبعد أشهر طويلة اتصلت سارة بوالدها وسمعت صوته وحين قالت أنا سارة، أغلق الخط...

ذلك الأمر كان كفيل بأن تبكي دهرًا، وتموت قهرًا... وفي هذه الأيام انعزلت عن الجميع وبدأ الأمل يتلاشى وأثر حزنها على حالتها، وبدأ الضعف يتمكن منها وتراودها تساؤلات وأفكار سيئة ولم تعد تستطيع النوم وتساءلت "لي لما كنت مستعدة للموت مموتش؟ لي لسة عايشة؟ كنت بحسب إني فهمت حكمة ربنا، إن ربنا خلقتني عشان أخلف حبيبة، طب لي مدخلتش

كلية أحلامي! أنا دعيت كثير، لي مستجابش!" وبدأت تلقي اللوم على زوجها "لي مروان إداني الفرصة الرابعة! مش كان كفاية تلاتة! لي بتعب كل اللي حواليا؟ بابا باعني، اتخلى عني وماعتبرنيش بنته... هسنتى إي من الباقي؟ هما مش مضطرين يتحملوني وأنا عبء عليهم... وأنا عبء على نفسي!"

كان هذا هو حديثها مع نفسها في أضعف لحظات حياتها، راود نفسها حديث ستندم عليه كثيرًا فيما بعد، فلا أحد يعلم حكمة الله سواه، ولا أحد يتبين مستقبله سوى الله، ولا أحد يستطيع أن يلوم الله على دعاء قد فات، فالله يقدر الخير لعبادة، وعلى قدر الإيمان يأتي الابتلاء، فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنت إن كنت تظن أن ما تمر به فوق الاحتمال، ما كان الله قد وضعه في طريقك، لأنك أقوى من همك ومن ابتلائك الذي وضعك الله فيه، ولكن للأسف أحيانًا نضيع ولا نتبين ذلك!

وما زادا حديثها هذا إلا إصرارًا في أن تبتعد عن الجميع وتبدأ حياة جديدة، بعيدًا عن الشعور بالذنب، والخيانة، والثقل، وما أسوأ أن يشعر الانسان نفسه ثقيلًا!

ستترك كل شيء خلفها ما عدا ابنتها، ستتمسك بها، وستحاول أن تراها في كل فرصة سنحت لها، وهي تعلم أنها ستعيش وسط عائلة سوية طيبة الأخلاق والطباع...

وراودتها تلك الأفكار طويلًا إلى أن أتى يوم وقررت وقالت بعد أن تهدت "هدأ صفحة جديدة، حتى لو مش عارفة ازاي، هبدأ من أي حنة المهم هسعى لحد ما أوصل لليرضييني".

أرادت سارة أن تصبح قوية غير محتاجة لأحد، لم تعد تريد أن تصبح ضعيفة، عوضت أمرها لله، وحلمها الذي تشبثت بأمله...

أما منة فتقربت من سارة أكثر، وافضت لها سارة عما بداخلها وعن حياتها، واعتنت بحبيبة بكل حب، كطفلة أحضروا لها لعبة تحبها، ولكن

سرعان ما عاد داء الغيرة والشك، وهذه المرة كانت ترى زوجها وما يفعله، وأسلوبه معها ومع سارة، وأجzمت أنه يكن مشاعر أكثر من الإشفاق ونية المساعدة، وامتلى قلبها بالغيرة مرة أخرى، وابتعدت عن سارة رويدًا، رويدًا إلى أن أصبحت تتصل بها كل فترة مرة، لا تبدي لها كرهاً أو حبًا...

أما بداخلها فكانت مشوشة شريفة الفكر والمشاعر، مُزق قلبها بسبب كل ما حدث، وكانت تتماسك بكلمة واحدة من مروان، كلمة منه تجعلها أفضل، وصمته يقتلها، وهو دائماً صامت، إما في جدال معها، كانت تشعر اتجاه سارة بالغيرة والإشفاق في آن واحد، وأصبحت مشتتة في حبها وكرها...

أما عن حبيبة لم تستطع أن تعتني بها بمفردها، فكانت حماتها معها دائماً، وانشغلت هي أيضاً مع منة...

أما مروان فتعلق بسارة وأحبها، أصبح لا يتخيل يومه بعيدة عنه، وأصبح ينام ليله يفكر فيما سيفعله ليسعدها، أو يفكر كيف له أن يعترف لها بحبه وأنه لا يود أن يتركها! أصبح يمقت منة ومشاكلهم وخلافاتهم التي تتزايد يوماً عن يوم، ولم يعد يذهب للنوم لديها.

وفي ذات يوم تساءل إن كان بين خيارين إما سارة أو منة، فمن سيختار؟ ذهب قلبه فوراً اتجاه الخيار الأول، ولكن أعاد عليه عقله ذكرياته الجميلة مع منة، فاحترار ونام، دون أن يجد جواب...

كانت سارة مدركة ما يحدث حولها، وتعذر تغيب منة ووالدة مروان، هي في الأساس تشعر نفسها ثقيلة...

رأت الحب بأعين مروان، لامست ذلك في حديثه المترامي، وتصرفاته الحانية عن قبل، حبه لمشاركته أوقاتها، ورغم امتنانها له، لكنها لم تكن تود أن يصل الأمر إلى هذا الحد، وهذا ما جعلها تعزم على قرارها...

وإن كنت تحسب أن سارة بلا مشاعر، فأنت مخطئ تمامًا!

وفي ذات يوم عاد من عند الطبيبة مستبشرين، فالمرض يتلاشى وحالتها تتحسن، وخُفف عنها الكثير من الأدوية، وأصبحت الجلسات هي وبعض الأدوية الباقية، ذهبا إلى منزل منة وجلست مع حبيبة، رأت منة مرهقة شعرت بالحزن من أجلها، رغم أنها لم تخبرها أي شيء عن نفسها أبدًا، ولكن مظهرها يخبرها كل شيء، ودعت لها في سرها كي يصلح لها الله حالها، وحين الرحيل، قبلت سارة رأس حبيبة النائمة بحنان، وسلمتها لمنة، وعندما كانت منة تمسك بحبيبة بيد أمسكت يد مروان بالأخرى تترجاه قائلة:

- متخليك معنا النهاردة...

حرر يده من يدها قائلاً:

- المرة الجاية إن شاء الله...

- مروان محتجاك ضروري...

- مش هينفع يا منة قولتلك، سارة هتروح ازي!

ومن بعيد تابعت الأم وسارة المشهد، لتقول السيدة زينب فوراً:

- مش هعرف أقعد النهاردة مع منة، وهي بقالها كام يوم تعبانة، وعارف

أبوك مش بيحب أفضل كثير برا البيت...

وارتدت معطفها وحقبيتها، وقالت وهي تمسك ذراع سارة:

- لو على سارة مفيش مشكلة هنركب تاكسي مع بعض وبيوتنا في شارع

واحد...

صمت مروان ورأى في أعين منة الترجي، وانتهزت سارة الفرصة حينما
نظر لها وأومات له بالبقاء، وذهبت مع حماتها...

وعادت مساءً إلى منزلها بسيارة أجرة، رأت سارة حال منة وترجيها
لمروان، وكان ذلك الموقف كفيل لها؛ حتى تفعل ما نوته...

وباليوم التالي كانت متأكدة من قدوم مروان بعد انتهاء ساعات عمله
وكانت تنظر إلى الساعة التي قاربت على الخامسة، موعد مجيئه، وتضع
يدها على صدرها موضع قلبها، ربتت على قلبها ومنعت دموعها من الهبوط
وقالت لنفسها "إهدي يا سارة اللي بتعمليه دا الصح، هو دا اللي لازم
يحصل، الحمد لله بتخفي، أنتِ نجحتي وهزمتي المرض، معدتيش محتاجاه
في حاجة، وأنتِ عارفة من أول يوم إن الوضع اللي أنتِ فيه غلط، حطي
نفسك مكان منة".

استمدت كل قوتها من جملتها تلك وأخذت نفساً عميقاً وزفرته
وانتظرت مجيئه...

حين عاد مروان إلى المنزل، لم يجد سارة بالصالة ووجد المطبخ فارغ والطعام لم يحضر، وحين دلف الغرفة وجد سارة جالسة على طرف السرير يظهر على ملامحها حزن وتضايق، فتساءل فوراً:

- مالك يا سارة خير؟

- مماليش.

- حد عملك حاجة؟ هانم مش موجودة لي؟

- عندها مشكلة فاستأذنت ومشت...

- بجد! طب أنت ز علانة لي؟

لم تجاوبه وظلت صامتة، شعر من صمتها أنه هو من أحزنها، وذلك جعله محتاراً للغاية، ما الذي فعله ليضايقها هكذا؟ فأخبرها وقد جلس بجوارها:

- شكلك متضايقة.

- لاء أبداً...

إنه يعرفها جيداً وإجابتها هذه تعني أنه يوجد من يضايقها، فسألها بكل وضوح:

- قولي إي اللي مضايقتك... طب أنا ز علتك في حاجة؟

نظرت له ورأت على أعينه الحيرة والتفتت الناحية الأخرى كي لا يرى أدمعها، وأخذت أنفاسها وزفرتها، ونظرت أمامها مرة أخرى، قائلة:

- هحكليك بس على أساس إنك صاحبي، عشان مش لاقية حد أحكي له...

حينها ابتسم وعاد إلى ذاكرته أول حوار بينهما بعد الزواج، وقال:

- صاحبك، صاحبك، اتفضلي احكي وفضضي براحتك، أنا سامعك...

- أنا... متضايقة من جوزي أوي، مش قادر يفهم إني مش طيقاه ولا

بحبه...

نظرت له ورأت الصدمة جلية على وجهه، فتابعت:

- عمري ما هحبه ولا حبيته، ولو قلت أي حاجة تدل على الحب يبقى هو فهم غلط، أو كنت في لحظة ضعف، عيزاه يفهم إني مش ضعيفة، وإني اتجوزته غصب عني، أما عن نفسي مكنتش بصيت له أو فكرت فيه...

ورأته صامت، فتابعت وقد بدأت بالبكاء:

- هو لي مش راضي يسيبني في حالي؟ مش كان بينا اتفاق وخلص!

ومسحت أدمعها، وتنهدت قبل أن تنهي حديثها قائلة:

- مش عارفة امتى هيفهم إني مش عيزاه؟ امتى هيفهم إني عايزة أرتاح، وإني مش مرتاحة؟ امتى؟!!

وسكنت سارة عن الكلام، ذلك الكلام الذي ألكم مروان، جلس زائغ البصر قليلاً، ثم وثب واقفاً، وقال وهو يخرج من الغرفة مطأطأ الرأس:

- طيب...

وذهب مروان وأغلق باب المنزل خلفه، وكانت هذه هي المرة الأخيرة ترى فيها سارة مروان...

ومرت ثلاث أيام دون أن تسمع سارة أي خبر عن مروان، وكانت تتصل على منة بكثرة بحجة أن تطمئن على حبيبته، وكلما تحاول أن تسأل عنه وعن حاله، لا تجرؤ على السؤال، وتغلق المكالمة دون ارتياح، وقلب قلق مضطرب، وبه من الندم ما يقتله، شعرت بغباء ما فعلته وحننت كثيراً على ما فعلته...

وحادثت نفسها قائلة " يارب مايكونش صدق اللي قولته، كل شوية أتخيل انه داخل من الباب، يارب يرجع، وأنا مش هعمل كدا تاني "

آلمها قلبها، وآرقها قلقها لدرجة أنها قررت أن تتصل به باليوم الثاني، وبعد تردد وضغط على نفسها، اتصلت، ولكن لم يرد...

وهوى قلبها إلى القاع، وبكت كثيرًا، ولم يأت مروان بعد...

وبعد أسبوع آتاها اتصال وكان الرقم غريب، فلم تجاوب، هي معتادة حينما يأتها رقم غريب ألا تجاوبه، ولكن الرقم اتصل مرة أخرى وألح في الاتصال مرارًا، فأجابت في توجس وانتقلت للخطة الأخرى وهو أن تجعل صوتها مغلق، إلى أن يتحدث الطرف الآخر ويتبين مصدره، سمعت صوتًا غليظ، لكنه يتحدث باحترام آتي من الناحية الأخرى، يقول:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، معايا المدام سارة؟

لم يآته صوت، فتابع قائلاً:

- أنا المحامي يوسف المحمدي، محامي الأستاذ مروان...

حينها جحظت أعين سارة وسمحت لصوتها الوصول إليه قائلة:

- أيوة أنا مع حضرتك...

وكان أول سؤال تسأله:

- هو مروان كويس؟

- الحمد لله الأستاذ مروان بخير، بتصل على حضرتك عشان آخذ معاكي

موعد...

- ميعاد إي؟ خير؟!

- خير إن شاء الله.

واتفق معها المحامي على موعد في الغد بمكتبه، وأغلقت معه سارة بقلب مقبوض، واتصلت على مروان في محاولة يائسة دون نتيجة، وانتظرت الغد بلهفة غريق للنجاة...

وأتى الغد وذهبت سارة إلى مكتب المحامي، وحين دلفت مع السكرتيرة، قال المحامي:

- اتفضلي أقعدي يا مدام سارة...
- شكرًا...

وكان يتضح على وجهها علامات الفضول واللهفة؛ لمعرفة سبب تواجدها، قال المحامي متفهم لهفتها:

- دا السبب في وجود حضرتك النهاردة، اتفضلي...

وناولها ملف ما، أخذته منه ي تعجب متسائلة:

- دا إي؟

- الملف دا ي ورق الطلاق، وعقد ملكية الشقة اللي حضرتك قاعدة فيها، بقت باسم حضرتك دلوقتي...

كانت سارة تخرج محتويات الملف وأمسكت ورق ما، حين أخبرها المحامي بذلك، وجعلها تصدم، فتابع المحامي قائلاً:

- دا ورق قبورك بكلية الطب في الجامعة الأمريكية، حضرتك تقدري تبدأي دراسة فيها من السنة دي... وأي مصاريف حضرتك مش ملزمة بيها...

ذلك جعل الأدمع تجتمع بأعين سارة المرهقة منذ ليالي، وتابع المحامي:

- كل مصاريف العلاج والجلسات، ه يتم دفعها لحد ما حضرتك تبقي كويسة تمامًا... وبالنسبة لبنت حضرتك، فالأستاذ مروان والمدام منة قرروا مايبوش عن حبيبة أمهم الحقيقية، وهيبقى ليكي يومين في الأسبوع تشوفيها فيها...

كان بداخل سارة براكين حزن تنهار، وأمام المحامي تظهر الثبات، وتابع المحامي قائلاً وهو يشير على البند الأخير بورقة الطلاق:

- وآخر حاجة دا المبلغ اللي هيتصرف ل حضرتك كل شهر، وتقدي تغيري فيه زي ما حضرتك عايزة...

كان بداخلها كالجمر، رغم الصمت البادي، والقوة المصطنعة، حينها أدركت... أدركت أن الشخص الوحيد الذي أحبته، الشخص الوحيد الذي عاملها بحب، هو ذاته الشخص الذي لا يمكنها أن تكمل معه! علمت مقدار تأثير كلماتها عليه وودت لو أنه كان أمامها لتأسفت منها، ولكنها تعلم أن هذا ما كان يجب أن يحدث "أسفة... سامحني". وبعد صمت دام طويلاً، قالت بغصة:

- مش هقدر أقبل بأي حاجة من اللي حضرتك قولتها، كل اللي أقدر عليه هو إني أوقع على ورقة الطلاق بس...

- للأسف دا من شروط الطلاق... لازم توافقي على كل البنود...

احتارت في إجابته، ولازمت الصمت، قال المحامي وهو ينظر في ساعته:

- بعد إذنك يا أستاذ سارة بسرعة؛ لأنني مش فاضي...

قالت سارة، محتارة:

- ممكن أكلم الأستاذ مروان؟

- الأستاذ مروان مش عايز يتكلم مع حضرتك، عشان كدا حضرتك هنا النهاردة...

إنهار بداخلها بعد هذا الجملة واحترت أكثر فيما ستفعله وقالت "يارب ساعدني، أوقع ولا لاء؟"

احتارت كثيرًا فيما عليها أن تفعل، هي من جعلت الأمر يصل إلى تلك النقطة، وها هي تحصل على مرادها الذي رسمته، ولكن كل تلك البنود التي اشترطها تقتلها، يريد أن يكمل عناية بها حتى بعد الطلاق، حتى بعد أن كسرت قلبه.

لا تدري ماذا عليها أن تفعل؟ هل توافق وتوقع، وتخسر كرامتها! أم تذهب دون أن توقع، وهي تعلم أنها مهما فعلت لن يوافق سوى بهذه الشروط! احتارت كثيرًا وأخذت نفسًا عميقًا وزفرته بعمق، وقالت لنفسها وقد استمدت كل قوتها " مفيش رجوع من الطريق دا، وإن كان حط الشروط دي فأنا هلغي منها واحدة، واحدة، مش هروح جامعة بفلوسه ولا هاخذ منه فلوس، واللي هاخده هيبقى دين... حتى البيت، أول ما الأقي بيت هيرجع له بيته، مش هخليه يتحكم بيا، ولا يرجعني عن قراري، اللي أخذته بشق الأنفس..."

لخصت كل حديثها هذا بكلمة واحدة قالتها للمحامي:

- تمام... عايزة قلم...

وناولها المحامي القلم، وقبل أن توقع أغمضت أعينها وسمت الله، ووقعت سارة على ورقة طلاقها، وأنهت سارة قصتها هي ومروان للأبد...

خارت كل قواها حين دلفت المنزل بعقل شاردا لا يصدق أن قصتهما انتهت هكذا، لم يكن بالأساس لها تكلمة منذ أول يوم، ولكن عندما عادت المنزل، رأت في كل ركن منها ذكرى تجمعهما، لحظات ضعف كان بجوارها، ولحظات انتصار لم يفارقها فيها، بكاء وفرح، كان هو شريك فيهم كلهم... حتى الخلافات التي كانت بينهما ودائمًا ما تنتهي بضحك، تذكرتها،

كل ركن بذلك المنزل يجمع لهم ذكرى سويًا، وهذا ألمها كثيرًا واعتصر قلبها حزنًا...

وعادت سارة وحيدة من جديد، عادت مشتتة لا تعلم ماذا عليها أن تفعل... واستسلمت للبكاء وأصابها اكتئاب شديد...

لم يسأل عليها أي أحد أو شخص، ولم تكن تعلم أن ما أصابها اكتئاب، وكانت تنام ساعات كثيرة ولا تنشط وتشعر بالنعاس، وحين تستيقظ تصيبها شهية للطعام لم تصيبها من قبل، وكانت لا تقدر على فعل أي شيء بالمنزل، فكانت تطلب الطعام الجاهز، والوجبات السريعة، حتى الطعام سريع التحضير وكل الوجبات الخفيفة والمسليات لم يعد يخلوا منزلها منها، وأهملت منزلها ونفسها، ولم تكن تذهب في أي مكان إلا كي تأخذ ابنتها من عند والدتها مروان، أو تعيدها إليهم...

رأت السيدة زينب التغير الذي حدث في سارة وحاولت أن تسألها مرارًا عما بها، وبماذا تشعر، وإن كانت ملتزمة بأدويتها أو لا، ولكن سارة كانت تغلق الحديث بأنها بخير، ولا تتوانى عن أخذ أدويتها والحفاظ على صحتها، وتذهب معها ابنتها...

كانت حبيبة كل حياة سارة، وبسبب اكتئابها لم تكن تشعر بسعادة معها رغم محاولتها، وفي يوم تركت ابنتها تلعب بالألعاب بالصالة وهي لم تستطع أن تقاوم النوم، وسُخِرَتْ لها كل الأسباب لتقتنع أن أمر ترك ابنتها والنوم أمر طبيعي، وذهبت لتنام بغرفتها، لم تستيقظ سوى على بكاء ابنتها وصوت جرس الباب، واستيقظت وجدت حبيبة مصابة برأسها وتنزف بجوارها، لا تعلم منذ متى حدث هذا وكيف، ولكن هناك زجاج مكسور ودم بالصالة، وصوت جرس ودق على الباب، حينما وعت ورأت كل هذا، هرعت خائفة ممسكة ابنتها وفتحت باب المنزل وكانت جارتها هي من خلفه...

سمعت الجارة صوت بكاء متواصل، وزجاج يكسر، وتأكدت أن هناك طفل بالمنزل ولا تعلم إن كان هناك أحد آخر أو لا...

ذهبت سارة إلى المشفى بسرعة ومعها جارتها وهناك اتصلت على حماتها التي أتت، وخيبت رأس حبيبة، ولم تتوقف سارة عن البكاء، ورأتها حماتها في هذه الحال وجوارها جارتها تحاول تهدئتها، فقالت:

- سارة إي اللي حصل؟
- حبيبة، حبيبة كانت هتروح مني، وأنا السبب.
- قالتها من بين شهقاتها، وعلت الجارة للحماة قائلة:
- تقريباً سارة راحت عليها نومة وحبيبة كسرت إزاز ووقعت عليه...
- قالت سارة تحمل نفسها كل الذنب:

- مراحتش عليا نومة... أنا السبب في اللي حصلها، كان ممكن تضيع بسببي...
- إهدي يا سارة، كل الأطفال في السن دا كدا، منين تعرفي إنها هتكسر إزاز!

نظرت سارة إلى حماتها قائلة:

- معدتش هاجي آخذ حبيبة... أنا مش أمان عليها...
- متقوليش كدا يا سارة، دي حادثة كان ممكن تحصل ي أي وقت...
- أرجوكي، على الأقل لحد ما أتخطى اللي حصل، ويبقى عندي مسؤولية...

وتابعت ببكاء أكثر:

- أرجوكي...

لم تستطع حمايتها أن تقول لها شيء، ورأت أن معها حق، كيف لها أن تأمن على حبيبة لديها بعد الآن؟ حاولت تهدئتها ومواساتها، قائلة:

- حاضر، هيحصل اللي أنت عيزاه...

وحاولت جارتها أن تأخذها معها لمنزلها، وأخبرتها حمايتها أنها ستبقى مع حبيبة إلى أن يأتي والدها، ولم تذهب مع جارتها إلا عندما علمت بقدم مروان، وهي تعلم أنها غير قادرة على مواجهته...

وعادت إلى منزلها ينهشها الذنب، وازداد أمرها سوءً، ضلت طريقها كثيرًا وفي الظلام الدامس تخبطت، لا تبصر الضوء، ولا يوجد من يُبصرها...

ولم تهمل سارة نفسها ومنزلها فقط، بل لم تعد تذهب إلى جلساتها، وحين تتصل بها المشفى لا تجاوبهم، ولا تعتذر، ولم تستطع مفارقة ابنتها، ولكنها لم تستطع أن تأخذها لديها، فأصبحت تذهب إلى منزل حماها؛ لتراها...

وبعد شهر أو يزيد، وهي عائدة من زيارة ابنتها فتحت هاتفها ورأت أن المشفى اتصلت بها كثيرًا، ولم تجيب ككل مرة، ولكن هذه المرة وجدت رسالة لها بها:

"أنا دكتورة ياسمين، بكلمك بنفسي يا سارة، غيابك غير المبرر دا بياثر بشكل سلبي، وصلني خبر بانفصالكم، وخمنت إن دا السبب وقولت أسيب لك وقتك، لكن كدا كثير، لو دا السبب الحقيقي، فأنا موجودة النهاردة الساعة خمسة في الكافيه اللي سيبالك موقعه دا، هستناكي تيجي، ولو مجيتيش هتضر أكلم الأستاذ مروان؛ لأنني اتأخرت على ما أعرفه جدًا، وحاولت أتفهم نفسيتك واللي بتمري بيه، لكن دا ميدكيش الحق أنك تيجي على صحتك، أتمنى لك يوم سعيد".

رأت سارة الرسالة الساعة الخامسة والنصف، وأمعت النظر إلى الرسالة مطولاً، ثم أشاحت ببصرها إلى الطريق فتوقفت لها سيارة أجرة، اعتبرتها إشارة وركبتها وذهبت بها إلى مكان المقابلة...

دلفت سارة المقهى وبأعين باحثة، رأت الطبيبة جالسة بركن بعيد عن الجميع ويدها قهوة، وحين رأتها الطبيبة وتلاقت أعينها بأعين سارة المرهقة، بدى عليها إشفاق على ما وصلت إليه حالة سارة، وهمت واقفة تستقبل سارة، وقبل أن يتحدثن احتضنتها الطبيبة بقوة وحنان جعلت سارة تبكي، منذ فترة لم تبك بكاءً من قلبها كهذا، لم تكن تشعر بالحياة، ولم يعد بإمكانها الشعور والبكاء، نست سارة ماذا تعني الفرحة في الأساس، وأصبحت الحياة بلا ألوان، كانت تحتاج إلى ذلك كثيراً، ولكنها لم تكن تدرك...

حين جلسن وبعد بكاءٍ بالأحضان دام دقائق، سألتها الطبيبة عما تريد أن تشرب، وحينما رفضت طلبت مما تشربه، قالت الطبيبة:

- مالك يا سارة، احكي لي... في إي؟
- أنا كويسة...
- لاء يا سارة أنتِ مش كويسة، وشك البهتان بيقول غير كدا، إهمالك في العلاج، وأنك مابتروحيش المستشفى ولا بتردي على المستشفى أو عليا، وتليفونك المقفول، بيقولوا غير كدا، أنتِ عارفة أهم حاجة النفسية... وأنا شايفة غير كدا تماماً!

أدمعت أعين سارة مما ذكرته لها الطبيبة، لم تخطئ في شيء كل ما قالتها ما هو إلا حقيقة، ولكنها قالت وقد ظهر في صوتها غصة:

- مش عايزة أشغلك بمشاكلي...

- أنتِ عارفة؟ أنا هنا النهاردة عشانك، أنتِ مميزة يا سارة، أنتِ أقوى
من رأيت في حياتي، بستمد قوتي منك، إزاي أشوفك ضعيفة كدا، وما
ساعدكيش، يلا قولي على كل اللي في قلبك يمكن ترتاحي...

اطمأنت سارة للطبيبة، شعرت بأمان وقالت:

- مش عارفة أبدا لك منين بس أنا هحكياك حكايتي من الأول...

أومأت لها الطبيبة ممتنة على ثققتها فيها وابتسمت لها علامة أنها مستعدة بأن
تسمع منها كل شيء إلى النهاية، وتنهدت سارة تنهيدة عميقة قبل أن تحكي
لها ما بداخلها أجمع...

وأفضت سارة للطبيبة كل شيء، وسمعت الطبيبة بصبر واهتمام، إلى أن أنهت سارة حديثها، قائلة:

- دا اللي حصل...

صممت الطبيبة فترة قبل أن تقول:

- مكنتش متوقعة منك كدا أبداً يا سارة...

تعجبت سارة من قول الطبيبة، وتابعت:

- بدل ما تكوني فرحانة! أنتِ بطلة يا سارة، كبرتني في نظري بعد اللي حكيتيه، بس أنتِ إي اللي وصلك لكدا؟ فوقي يا سارة... ومتنسيش أنكم اتجوزتوا من الأول عشان حاجة معينة، كتر خيره أوي أن فضل معاكي في وقت زي دا... ولما سابك، سابك وأنتِ قدامك حياة تعيشيها، مسابكيش في الشارع... إللي مش فهماه بجد، لي عملي في نفسك كدا؟ بكت سارة وبداخلها الكثير من المشاعر المطربة، وتركتها الطبيبة إلى أن هدأت، وقالت من بين شهقاتها:

- متعرفيش أنا ضغطت على نفسي قد إي عشان أوقع على ورقة طلاقي، كأي حبست كل مشاعري وخبثها لحد ما وقعت، وكان التوقيع دا مفتاح سجن مشاعري، وبمجرد ما وقعت وأنهيت كل شيء اتحررت مشاعري وأكلتني... مطلعتش قوية زي ما كنت فاكرة...
- لاء أنتِ قوية يا سارة، أنتِ عرفتي تطلعي وتشرحي اللي جواكي، وهي دي بداية العلاج...

مسحت سارة دموعها قائلة:

- بالنسبة للنقطة اللي حضرتك قولتي عليها، أنه مسابنيش في الشارع، دا اللي مز علني، ياريتيه سابني في الشارع بدل ما كان سابلي حياة جديدة،

كلها مبنية على اللي عمله، ياريتة خلاني أكرهه زي ما كرهته فيا،
إزاي أقبل أعيش على أنقاض قصة محكوم عليها بالفشل!
- دا أقل شيء تستحقه يا سارة، المفروض بكل اللي معاكي دا تقفي على
رجلك وتبقي أقوى من الأول، المفروض تمسكي في الفرصة وتحققي
حلمك اللي حلمتي بيه سنين، مش كل الناس بتيجي لها الفرصة تاني،
لازم تقومي يا سارة ومنتستسلميش...

وتنهدت الطيبة وقالت بكل عزم وهي ممسكة بيد سارة بقوة:

- أخرجي، واتبسطي، روعي الجامعة، وحققي حلمك، وأهم حاجة كملتي
علاجك، اللي زيك يستحقوا يشوفوا كل حاجة حلوة، ويحققوا
أحلامهم... وخليكي عارفة حياتك وموقفك عنده، وإن اللي عملتيه هو
الصح، وأنك سبتي عيلة وراكي مبسوطه، وأنقذتي أسرة من الدمار،
هيفضلوا طول العمر ممتنين ليكي..

حينها ترقرقت الأدمع بأعينها من جديد، وقالت:

- بس أنا حبيته...
- دي كانت مجرد أو هام، عشان إداكي اهتمام في وقت أنت محتاجة فيه
اهتمام...
- أنا متأكدة أنه كان بيحبني...

- حتى لو حبك، وحبيتيه، فهو دا الشخص الغلط... فوقي يا سارة
وارجعي لنفسك وقبل دا كله ارجعي لربك اللي قواكي لحد دلوقتي،
فكري كويس في كلامي يا سارة، محدش هيتبين طريقك غيرك...

صمتت سارة فترة من الوقت وتمعننت كثيرًا في كلام الطيبة الذي
أصابها كالصاعقة وجعلها تدرك ما لم تستطع إدراكه بمفردها، وبكت...
بكت كثيرًا، ولكن هذه المرة لأنها تبينت الحقيقة، ورأت الطريق الذي كان

على مرمى بصرها، ولكن أعمتها غشاوة قلبها، تركتها الطبيبة على راحتها حتى أنهت كل بكاء العالم، وحينها ابتسمت الطبيبة وبأعينها أمل، قائلة:

- بكرا هتلاقيني مستنياكي في المستشفى، عشان جilstك اللي اتأخرت،
وكمآن هعرفك على دكتورة ريم هتابع معاكي حالتك النفسية، أو عدك
هتبقى أحسن من كدا، متهمليش نفسك تاني يا سارة...

أو مات لها سارة برضا وابتسامة، قائلة:

- شكرًا ليكي جدًا يا دكتورة... لأنك سمعتيني...

- متقوليش كدا يا سارة أنا موجودة في أي وقت.

نظرت لها سارة نظرة امتنان مطولة، وانتهى حديثهما لذلك اليوم.

وعادت سارة إلى منزلها، وكل ما يدور بذاكرتها هو لقاءها مع الطبيبة، لا تستطيع أن تتكر أن معظم ما قالته لها الطبيبة صحيح، ولكن ماذا عن قلبها؟ هل يكون كل ما شعرت به أو هامًا كما قالت؟ وبعد كل ذلك لا تزال تشعر أن الحياة مستحيلة بدونه، ولكنها أغلقت حديثها هذا مع نفسها وهي تستعيز بالله من الشيطان الرجيم وقررت أن تقيم الليل عل الله يظهر لها طريقها الصحيح، دون تردد أو خوف.

وقبل أن تذهب إلى النوم عازمت على أن تذهب إلى المشفى غدًا وتذهب إلى الطبيبة النفسية، بعد أن تنتهي جلستها، وبالصبح الباكر ذهبت كما عمت، وفرحت الطبيبة كثيرًا بمجيئها...

وبدأت سارة عهدًا جديدًا في حياتها، ورويدًا رويدًا تأقلمت على حياتها الجديدة، وانتهى اكتئابها بفضل إصرارها، ومحافظةها على العلاج، وعادت

سارة تأخذ ابنتها من جديد، ومع تخوف من أهل طليقها في البداية، لكنه انتهى عندما رأوا تحسنها وابتسامتها من جديد...

قررت سارة أن تستغل فرصة الجامعة وتحقق حلمها، ولكنها ستعتمد على نفسها وستبحث عن عمل كي تعيل مصروفاتها الشخصية، يكفي أن مروان دفع عنها مصاريف تعليمها وعلاجها، وسيرى العالم كم أنها قوية، وكيف استطاعت أن تواجه كل الصعوبات، وسيكتب التاريخ قصة كفاحها...

ومرت أشهر قليلة وبدأت دراسة الجامعات، ودلفت سارة الحياة الجامعية وهي على أعتاب سن العشرين، وكانت في أشد فرحها وهي بالجامعة، وجرت الأمور أفضل مما كانت تتوقع سارة، وشعرت أنها تعافت وتستطيع الآن أن تعمل حتى وإن أوقفت جلساتها لفترة...

حدثت سارة الطبيبة عما يراودها واستأذنت منها التوقف قليلاً عن الجلسات، أخبرتها الطبيبة أنها في تحسن، ولكن ليس بإمكانها التوقف الآن ورفضت الطبيبة رفضاً قاطعاً، ولكن سارة لم تسمع للطبيبة وتوقفت عن الذهاب حين وجدت عملاً.

كانت تبحث عن عمل لها بجوار الدراسة، بحثت كثيراً عن عمل، وكم كان من الصعب الحصول عليه، ومرة أشهر في بحثها، إلى أن قابلها ذات يوم شركة أدوية جديدة تبحث عن موظفين، وذهبت وبدون أي خبرة قدمت هناك كموظفة استقبال، ورغم انعدام خبرتها، قبلوها حين وجدوا إصرارها وبعد تدريب دام 3 أشهر عملت معهم وقبضت مرتبها الأول أخيراً، استطاعت سارة أن تثبت وجودها، وكانت من أوائل من عمل بالشركة، رأوا كم أنها تعلمت بسرعة، ورأوا كم أنها لا تتوانى في أداء المهمات واجتهادها لتخرج أفضل ما لديها، وأنها لم تدمج أبداً بين حياتها الشخصية والعمل، وفي حقيقة الأمر أحبها جميع الموظفين.

ولا تحسب يا عزيزي أن حياة سارة كانت وردية ومن نجاح لنجاح أصبحت حياتها، أنت لم ترها في نوبات انهيارها، أو عند مرضها يوم جلسات العلاج وكم كان يعز عليها وجودها بمفردها في ذلك الوقت، لكنها لم تترك نفسها لأحزانها، وتعلمت بعد أن نجت من الاكتئاب بأقل الخسائر، أن تعود إلى الله دائماً وأبداً فهو حفيظها، وتعلمت وما أقسى ما تعلمت به ذلك الدرس، ألا تُعلق قلبها لأي شخص أو شيء بالعالم سوى الله...

ولا تعلم كم أنها عانت كي لا تتقبل من مروان أي مصاريف زائدة عن الجامعة، وأنها ستتكفل بباقي كل شيء، كان كل حديثها مع المحامي وبعد مفاوضات وأحاديث كثيرة وافق مروان على شرط أن يعطيها أموال العلاج فقط، وهنا تنهدت سارة قليلاً وشعرت أن حملاً كبيراً قد تم إزاحته...

وكانت ابنتها هي الشيء اللطيف والنسمة الجميلة التي ملئت حياتها، وكم تمننت لو بإمكانها أن تصبح معها للأبد...

أما عن عملها فشعرت أنه مكافأة من الله على صبرها أشهر، فالمدرء متفهمون، ومرتبها ليس بقليل، العيب الوحيد هو أن العمل بعيد، ولكن ليس بالمشكلة الكبرى...

واستمرت سارة في دراستها، واجتهدت مقدار استطاعتها، وفي العام الثاني بالجامعة، وفي ذات يوم عملت هي وأربعة آخرون من زملائها على مشروع بحث، وبتلك الطريقة تعرفت على أفضل صديقة لها، الجميلة قلباً وقالباً رقية، أصبحت أقرب المقربين لسارة، واحبت سارة صداقتهم كثيراً وهي أيضاً...

كانت تصغر سارة بعام واحد، ولم تكن في البداية تعلم عن سارة شيء، وفي يوم الخميس خرجن من الجامعة متأخرات، وكانت سارة تريد أن تسرع في الذهاب، وحين سألتها رقية عن السبب تعجبت من إخبارها أنها تأخرت على ابنتها... وهكذا علمت رقية كل شيء عن سارة، وكم كانت تتعجب كثيراً مما

قاسته سارة، وكم كانت كثيرة القول "أنا مش مصدقة أنكِ مرיתי بكل دا!"
ودائمًا ما تساءلت كيف لها أن تتحمل كل هذا؟ وكانت كثيرة القول أيضًا "أنا
حاسة إن ربنا هيعوضك بحاجة كبيرة أوي" وكانت تبتسم لها سارة وتأمّن
على حديثها...

وتطورت علاقة الصداقة بين رقية وسارة، وعلمت رقية كل أدوية سارة ومواعيدها، وأصبحت حقًا تخاف على صحة سارة أكثر من نفسها، وتتصل عليها في كل موعد للأدوية وذهبت معها إلى الجلسات؛ فأصبحت سارة لا تهمل جلساتها...

كانت تخبرها بتملل دائمًا بأنها تفعل هذا لتنتهي من إلحاحها المتكرر، ولكن الحقيقة كانت ممتنة كثيرًا لرقية ولوقوفها بجوارها، كانت مختلفة عن جميع من بالجامعة، بسيطة مثلها ولا تحاول أن تظهر نفسها أمام الجميع كالفتيات اللواتي معها بالجامعة، وكانت مجتهدة، محافظة على الصلاة تجتهد في عبادة الله...

أما سارة فكانت تحمد الله كثيرًا عليها، فالصديق الصالح نعمة ورزق من الله...

تطورت علاقتهن وبدأت زينب تذهب إلى سارة وتجلس معها بالمنزل بأيام الإجازات، لتؤنس وحدة سارة، وبنية المذاكرة مع بعضهن، ولكن ينتهي بهن الأمر بالحديث بالساعات دون أن يشعرن... وكام كانت تلك الأوقات أجمل لحظات في حياة سارة، حفرت في الذاكرة أبد العمر...

وفي يوم النتيجة كانت سارة حينها بالعمل حين راودها اتصال من رقية، وفي الاستراحة إعادة الاتصال عليها، لتجد رقية تقول:

- إي يا بنتي! ما بترديش لي؟
- ما أنت عارفة إني في الشغل، ومش هينفع أرد.
- براحتك، عالعموم في مفاجئة.
- مفاجئة!
- اه... مستعدة؟

قالتها رقية بحماس لتقول سارة بحماس أيضًا:

- أنا جبت امتياز...

- إي! إزاي دا! مستحيل يا بنتي...

صدمت رقية من ردة فعل سارة الغريب، ولكنها سمعت ضحكات من الجهة الأخرى ففهمت اللعبة، وقالت تجاريها:

- شوقتي! معرفش إزاي؟

وضحكت هي وسارة، وقالت سارة بعد فترة:

- ثواني درجاتي بتحمل... لحظة... امتيااز يا بشر...

وأصبحت الفرحة فرحتين واتفقتا أن يتقابلا في ذلك اليوم المميز، ويذهبن إلى مطعم جديد للاحتفال، فالعام الماضي كان تقدير سارة جيد، ومعنى أن تقديرها ازداد أنها بذلت جهداً رائعاً...

ومرت إجازتها الجامعية وأيامها بأفضل ما يكون وفي حمد لله دائماً ورضاء، إلى أن أتى يوم وبعد أكثر من ثلاث سنوات من قسوة وظلم رأت والدها صدفة في نفس الحي الذي يؤدي إلى عملها، رأتها ولم يكن الأب الجبار المتكبر، كان ضعيفاً مهزوماً وكان أعباء العالم كله فوق كتفيه، وبمجرد أن رآها الأب ذهب من أمامها، لم يعطيها حتى الفرصة؛ كي تتحدث معه، ومر اليوم وهي تفكر في أبيها، وفي مظهره البالي، وأعينه المنكسرة، وعكر تفكيرها هذا صفو حياتها...

وبعد يومين، كانت بالعمل لتجد سكرتيرة المدير تتحدث معها بشكل مبهم، قائلة من وسط حديثهما:

- على فكرة يعني يا سارة المدير عمره ما شغل حد بالواسطة ودا اللي بيميز شركتنا.

- اه طبعاً...

- بس دا ممنعش المدير أنه يقبل عشان خاطرك...
- هو إي؟
- باباكي...
- بابايا!

تعجبت سارة كل التعجب، وسألته:

- معلش يا خلود ممكن تفهميني؟
- أي يا بنتي مش هو أكيد أنتِ اللي قولتي لباباكي إننا عايزين أمن!
- هو الأكيد إنه لاء... بس هو انتوا عرفتوا ازاي إن بابا جه قدم هنا؟
- يا بنتي في بين الملفات راجل كبير نفس اسمك الرباعي يبقى إي!

صدمت سارة مما قالته السكرتيرة، وتابعت:

- عالموم بشريه بقى إنه اتقبل، وكدا كدا قبلناه عشان كان مسافر فترة قطر واشتغل فرد أمن... بس حببت أعرفك...

شردت سارة ولحظت محادثتها ذلك، وأدركت سارة شرودها فتأسفت وشكرتها، وذهبت الفتاة متعجبة من ردة فعل سارة العجيب على نبأ توظيف والدها.

ومنذ ذلك اليوم رأت سارة والدها بكثرة بالشركة وكانا يتبادلان نظرات دون أي حديث، لم يكن يتقدم والدها ليسألها عن حالها، وهي خافت أن تذهب وتسأله فيجرحها حديثه أو يضربها أمام الجميع، فأخر ذكراها حين هددها لتقبل بالزواج...

- سارة روحتي فين يا بنتي!

ثم غمزتها برقة وهي تضحك، وتتساءل:

- اللي واخذ عقلك!
- ها!

- ااه شكله الموضوع كبير، طب هو حلو؟
- هو مين؟
- اللي واخذ بالك.
- بطلي بقى حركات من دي يا رقية، اللي شاغل بالي بابا...
- هو عمالك حاجة؟
- لاء، بس نظراته ليا من بعيد وكسرتة وضعفه اللي ملحظاهم بيقهروني...
- يمكن ضعفه دا من عوامل السن، أنت أكيد عارفة...
- أنا ماشوفتش بابا من ثلاث سنوات... مش من عشرين سنة!
- طيب ما هو لو كان عايز يكلمك كان هيكلمك، أسفة لو بقولك كدا، بس هو قلبه قاسي...
- حاولت سارة أن تتبين ما تقصده رقية، لاحظت رقية ذلك، فأردفت:
- مفيش أب يشوف بنته اللي مشفهاش من سنين، ووشه في وشها كل يوم وميكلمهاش!
- شردت سارة قليلاً، وقالت بعد صمت:
- عارفة اللي بيز علني إي؟ تعليقات زمايلي اللي معايا، أسوء شيء حصل أنهم عارفين إنه بابا...
- زي إي مثلاً؟
- يقولوا احنا عارفين إن الشغل شغل بس مش لدرجة باباكي... أو أنت متخاصمة مع باباكي ولا إي! وغيره كثير...
- من امتي بتاخدي بكلام الناس؟
- مش باخد بكلام الناس بس بحس أنهم لما يتكلموا كدا، إن حياتي مكشوفة... أنا بصراحة مبقتش عارفة أفرح عشان بشوف بابا كل يوم، ولا أزعل عشان مش قادرة حتى أتكلم معاه!

وافقتها رقية الرأي، وحاولت أن تشتتها عن موضوع والدها، فهي ذاتها
محتارة فيما يجب على سارة أن تفعله، هل تذهب وتتحدث معه؟ أم لا؟

وفي ذات يوم وبينما سارة بالعمل أتى شخص تطاول بالحديث مع والدها،
وعلى مرمى من بصرها رأت ذلك فهرعت مشرعة نحو والدها تحميه من
ذلك العريبيد، وقد كان على وشك أن يمد يده على والدها الرجل الكبير،
ودافعت عن والدها وصرخت بالرجل إلى أن أتى باقي الأمن واتى المدير
ذاته، وانفض الأمر، وبقيت سارة ووالدها، قالت سارة في حرج وكأنها
تحدث شخص غريب:

- حضرتك كويس؟

- اه...

ولم تعلم ماذا عليها أن تفعل، وشعرت بالتوتر، وأصبح قلبها ينبض بشدة،
فذهبت، ولكنه قال يُسمعها:

- شكرًا يا سارة...

سمعته، ولكنها عادت خلف طاولة الاستقبال، دون أن تلتفت له...

باليوم التالي وجدت سارة والدها يوقفها وهي تدخل من باب الدخول، قائلاً
في حرج وكلمات متقطعة النبرات خارجة منه:

- ازيك يا سارة، عاملة إي؟

تعجبت من سؤاله الذي تأخر كثيراً، وشردت، وفي الحقيقة تالأأت أعينها،
ولكنها قالت باقتضاب متظاهرة بالقوة:

- الحمد لله كويسة...

- طب عايزة حاجة يا بنتي؟

- لا شكراً.

- طيب، بس لو احتاجتي أي حاجة أنا موجود هنا أهو...

- حاضر.

وذهبت من أمام والدها، وبعقل شارد بدأت يومها، كانت في بداية الأمر
متعجبة ثم ذهب عنها التعجب وداعبها ذلك الموقف، وجعلها سعيدة،
وشعرت في ذلك اليوم أنها أسعد شخص بهذا العالم، لقد سألتها والدها عن
حالتها، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وتوالت الأيام من بعد ذلك اليوم وبدأ العام الدراسي الجديد، وبشرت الطبيبة
سارة بأن كل التحاليل تخبرها أنها قد تعافت، ولن تذهب مجدداً إلا لأجل
الفحص كل بضعة أشهر، وكان ذلك يوم عيد بالنسبة لسارة ورقية، وبذلك
اليوم استأذنت سارة حماتها في أخذ حبيبة ابنتها، وأذنت لها أن تأتي لتأخذها
بعد ساعة، وفرحت حماتها ومن وراء حديثها أنبأت سارة بأن مروان سعيد
جداً لنجاتها، وأنه كان يعلم قوتها، ولكنها ابتسمت وذهبت بابنتها...

وباليوم التالي ولأول مرة أخبرت من بعملها عن مرضها حين أتت ومعها
حلو، وحين أعطت والدها، أخبرها:

- ربنا يفرحك يا بنتي وتنجحي كمان وكمان...

حينها علمت سارة من حديثه أنه لا يعلم بمرضها، ولا بحربها التي خاضتها، وأنه يستحي حتى في أن يسألها... وكم أنها أشفقت عليه حينها وودت لو بكت في أحضانه معترفة له بكل ما مرت به...

وبالجامعة بدأت الدراسة تصبح أصعب وساعاتها أكثر ومع العمل أصبح الأمر في منتهى الإرهاق عليها، وفي ذات يوم كانت تشرب سارة القهوة بإرهاق مع رقية بالكفتيريا التي بالجامعة، وهي غير بالية بأي شيء وتفكر في كم الأعمال التي لديها، قالت رقية بهمس:

- سارة بصي كدا...

- هااا...

- مش عارفة متهيالي ولا إي بس بصي بطرف عينك كدا ناحية اليمين...

فنظرت سارة بكل جسدها ناحية اليمين، لترجعها رقية في حرج وهي تقول:

- يا بنتي بقولك ماتخليهوش ياخذ باله...

- هو مين؟

- مش دا دكتور علي اللي بيدينا في السكشن...

- اه... ماله الدكتور علي!

- بصي بصراحة كدا بقى شاكة إنه معجب بيكي...

حينها ضحكت سارة، ولم تستطع أن تكتم ضحكاتهما، لتتابع رقية:

- يا بنتي طب هو دلوقتي والله كان بيبيص عليك، لحد ما أنتِ بذكائك

لفيتي وهو راح بعد...

- أرجوكي يا رقية بلاش خيال...

- طب بكراتقولي رقية قالت...

- ماشي يا ستي متز عlish نفسك، المهم إحكي لي باباكي عمل إي في حوار الراجل دا؟

- اه صح، طبعًا الراجل كداب وبيتبلى عليه، بس....

وحكت رقية لسارة كل شيء، ونسيت ما أحزنها من سارة كالعادة، ولكن لن أخفيكم سرًا، من بعد ذلك اليوم لاحظت سارة نظرات الطبيب لها، وكانت تستعيز بالله من الشيطان الرجيم حين تراه يناظرها، وتغض بصرها...

وبعد شهر من ملاحظتها نظرات الطبيب علي، وجدته ذات يوم يستوقفها ويسألها في حرج بالغ:

- دكتورة سارة، لحظة لو سمحتي...

- في مشكلة دكتور علي؟

- اه تقريبًا نسيتي ال...

ونظرت في يده وجدت محفظتها، وأخذتها منها فورًا قائلة:

- اه... شكرًا.

- طب بالمناسبة دي عايز أقولك حاجة...

تعجبت، قائلة:

- إي؟

وبتوتر قال:

- عايز أسألك على رقم والدك...

حينها شعرت بإحراج بالغ من ذلك الموقف، لم تكن تتوقع أن تقع فيه، وإحراج آخر يشوبه حزن فأبي والد ستعطيه رقمه! لكنها أجابته بعد فترة من صمت تفكر في إجابة:

- هستأذن والدي الأول وبعدين هديك رقمه...

وذهبت من أمامه فورًا وضربات قلبها السريعة لم تتركها، ومشاعر مختلطة
تشعر بها أبت أن تفارقها، سيطرت عليها مشاعرهما إلى أن ذهبت إلى العمل،
وحيثما رأت والدها شعرت بضعف كبير، بل ظلت تفكر كثيرًا هل تذهب
وتتحدث مع والدها وتخبره؟ أم لا؟

ولكنها ورغم شتات قلبها، تذكرت إلحاح والدها عليها كي تأتي وتخبره عن
أي شيء تريده، لذلك قررت أن تذهب وتخبره، لم يكن يهمها سبب طلب
الطبيب علي لرقم والدها، أكثر من أنه كيف لها أن تخبر والدها؟
واستجمعت قواها وذهبت إلى والدها في نهاية عملها، قائلة:

- بابا...

نظر الأب متفاجئًا نحو الصوت؛ ليجدها سارة وتنفجر أساريره قائلاً:

- في حاجة يا بنتي؟

- في موضوع يخصك... وبصراحة اترددت أجي لحضرتك...

- موضوع إي؟ ولي اترددتي يا بنتي؟

- خفت...

- مني أنا!

نظرت له مطولًا وكانت تسأله الكثير من الأسئلة بعقلها، هل يسألها حقًا إن
كان الخوف منه! وكيف لها ألا تخاف بعد ما قاسته من قساوته التي لم
ترحمها لا في بيته ولا بعيدًا عنه! كيف؟ فليخبرها، كيف؟ وكادت تخونها
أدمع وتسقط، وقالت تظهر القوة:

- المهم... في دكتور طلب رقم حضرتك، أديه له؟

- خير يا بنتي، في حاجة؟

- هو الدكتور سألني على رقمك، وأنا قولت أستاذن من حضرتك

الأول...

- طبعًا إدي له يا بنتي الرقم، ويارب يكون خير...
- تمام، ممكن رقمك؟
- طبعًا 010...

وذهبت سارة من أمامه عائدة إلى منزلها وقد كانت متظاهرة بكل جمود العالم وهي تتحدث مع والدها وبداخلها نار مشتعلة من المشاعر المختلفة، كانت سعيدة، فها هي تتحدث مع والدها بعد سنوات، وحزينة لما وصل إليه والدها ولما وصلت إليه علاقتهما، وألم حين تذكرت كل مواقفهم، وحسرة حين تدرك أنه لم يعاملها بحنو ولطف طوال حياتها سوى في وقت واحد، هو الآن...

كانت محتارة كثيرًا فيما عليها فعله في علاقتها مع والدها، وصلت وقرأت القرآن بنية أن يصلح لها الله حالها، وقررت أن تسلك طريق الصلح وتتناسى، علًا تنسى؛ فمهما حدث هو والدها، وعليها ببره وإن كان أسوء إنسان على وجه الأرض...

ومرت ثلاث أيام، فيهم أعطت سارة رقم والدها للطبيب علي، ولم تنتهي رقية عن الحديث أبدًا عن ذلك الموضوع، الأمر واضح للجميع أنه يطلب رقم والدها ليطلبها للخطبة، ولكن رقية في وسط حديثها ذات يوم قالت:

- طب دلوقتي سيبينا من الكلام دا... هو دكتور علي لما يجي هتلبسي إي؟ طب هتقدمي له إي؟

- هو كل شوية يا بنتي تفتحي نفس الموضوع؟

- أيوة، هو احنا عندنا غيره؟

- بصي بصراحة كدا، أنا أهون عليا يكون جاي ليا شكوى من الكلية، عن إنه يكون جاي يتقدم لي، بدل ما تفكري معايا إزاي نطفشه؟

ثم تابعت وهي تضع أصابع يدها تفكر:

- صحيح يا سارة، أنتِ هتقوليله على جوزتك ومرضك وبنتك؟

حينها لمعت أعين سارة وضحكت وهي تقول:

- تصدقي صح، مفيش حد عاقل هيسمع اللي حصل لي ويوافق يكمل معايا...

- أوعي يا سارة... أنا بقولك أهو عايزين نفرح...

- جاية تفرحي على قفايا يا رقية! يعني اللي بينضرب على قفاه مرة مش اتنين!

- مليش دعوة يا سارة أنتِ لازم توافقي...

وضحكت رقية مداعبة لها وضحكت سارة معها، ولكن حينها تساءلت بجدية، إن كان يود خطبتها حقًا، هل عليها أن تخبره أم لا؟ ولكن ما لبثت أن اهتدت إلى أن تخبره كل شيء؛ كي لا يكون أي شيء مخفي عنه منذ البداية ولتعلم صدقه في طلبه...

وباليوم الثالث تحديدًا، أخبرها والدها وهي في العمل:

- طلع الدكتور طالب إيدك يا بنتي، وأنا مرضتتش أرد عليه بكلمة غير لما أشوف رأيك...

تأكدت سارة من صدق حدث رقية، ومن توترها قالت بخجل:

- إللي حضرتك تشوفه...

- الخميس اللي جاي حلو؟

- ماشي...

- بس فين؟

استوقفها سؤاله كثيرًا، ثم بعد صمت قالت:

- في بيتي...

- تسمحي لي أدخل بيتك؟

تعجبت كثيرًا من سؤاله وقُبض قلبها، وقالت بسرعة:

- دا بيتك يا بابا...

وذهبت من أمامه، ورغم اختلاط مشاعرها، من خوف ورهبة وخرج وحزن، تغلب عليهم الحزن حين قال والدها آخر جملة، وفي أقرب غرفة مغلقة بكت...

وأتى يوم الخميس بأسرع ما يمكن وفي نهاية دوام العمل ذهبت سارة مع والدها إلى منزلها، وللمرة الأولى يخطو والدها منزلها، وبعد فترة بعيدة، ها هي سارة ترى نفسها مع والدها من جديد، ولكن هذه المرة ضعيف منكسر، يظهر عليه ندم شديد، حضرت سارة نفسها والعصير وأوراق، سألتها والدها في تعجب:

- أوراق دي إي يا سارة؟

- دي إثباتات...
- إثباتات!
- اه، مش هوافق على العريس غير لما يعرف كل حاجة بإثباتتها، لو وافق يبقى اللي يجيبه ربنا خير، ولو موافقش ربنا يجعل الخير خيرين...
- بس يا سارة...
- مفيش بس يا بابا دا اللي المفروض يحصل، اعتبره اختبار، أعرف فيه اللي عايزني بجد...

قال والدها في ياس:

- اللي تشوفيه يا بنتي...

وانتظرا حتى أتى العريس، وكان معه والديه، وقدمت سارة العصير، وبعد فترة تركاهما، وهذه المرة لم تكن خائفة، تضع رأسها أرضاً، بل نظرت له وأمعنت النظر فيه، وهو أيضاً، وهي من بدأت الحديث قائلة:

- حضرتك تعرف أنا مين؟

أجابها مبتسماً:

- طبعاً، الطالبة سارة مجدي طالبة في كلية الطب...
- بس؟ تعرف إي عني!

تعجب من سؤالها ولم يجد له جواب، فقال:

- قوليلي أنت.
- عايز تعرف عني إي؟

أجابها باهتمام، وقد أعجب بشجاعتها، وأسلوبها:

- أكيد عايز أعرف كل حاجة.

- طبعًا، من حقك تعرف كل حاجة، عشان كدا هحكيلك، وأنت اللي في إيدك الاختيار بعد كدا...

اعتدل الرجل من جلسته وقوس حاجبيه في اختما، وسمع من سارة كل شيء عنها...

وبعد أن أنهت سارة حديثها، ضحك الرجل ضحكة اهتزت من أجلها كل أركان المنزل، وقال:

- حلوة الحركات دي عشان تطفشيني وكدا، ومش صح؟ مابتكلش عليا...

غضبت سارة من ردة فعله وقامت من مجلسها أحضرت الأوراق التي جهزتها، وأعطته إياها وهي تقول:

- أنا مش مديونة لك بكذبة يعني...

وأخذ منها الأوراق وبدأ يرى الدلائل بأم عينه، وزاغ بصره، وشرد كثيرًا، وكأنه فقد حاسة الكلام؛ فلم يقدر على النطق، وشعر بأنه بمأزق كبير، لذلك في صمت ذهب مع والديه بعد أن ناداهما بصعوبة ورحلوا، ورأى والدها ذلك الشيء؛ فتساءل:

- أنتِ عملتي إي فيه...

قالت في كوميديا سوداء وهي تضحك:

- حس أنه اتورط يا عيني!

- لي يعني هو أنتِ أول ولا آخر واحدة تطلقي!

واتجه ناحية ورقها ليري ما فيه، وتفاجئ، في الحقيقة تفاجئ كثيرًا، ورأته سارة بعد فوات الأوان، بعد أن عرف من الورق، لقد كانت حينها شاردة فيما حدث لها وكانت تشعر بشعور لم تذقه من قبل، ولكنه سيء جدًا...

تركت كل ما ببالها حينما وجدت والدها قد رأى كل شيء وذهبت إليه
بنفسها؛ لتخبره...

وتوالت الأيام بعدها، وذلك المعيد ترك شرحه لمجموعتها كلها، وأتى
طبيب جديد، وعلمت رقية ودعت عليه كثيرًا وأصبحت تقول "كنت عارفة
من الأول أنه ميستهلكيش، أنت تستاهلي سيد سيده، هو يقدر يلمسك حتى!"

شعرت سارة في تصرفه شيئًا من الإهانة والحزن، واهتزت ثقتها
بنفسها، وظنت أن بها عيبًا خطير، علّ تتوهم قوتها وكفاحها، علّها مجرد
ضعيفة يشفق عليها الجميع، علّ كلام رقية صحيح، كان يجب عليها أن
تخفي عنه الحقيقة إذن، ولكنها في الأساس لم تكن تريد الزواج مرة أخرى
إلا بمن يستحقها وتستحقه حقًا، كان صبرها هو أن ما مرت به هو اختبار
لأي رجل يحاول أن يدخل حياتها، وأعدت لها رقية ثقتها بنفسها...

وتحسنت علاقة سارة مع والدها رويدًا، رويدًا ورأى والدها حفيدته
التي أكملت الثلاث أعوام أخيرًا، لم تر فرحته هذه من قبل، أو لمعة عينه،
وفرحت كثيرًا لفرحه، ورجم تقربها من والدها لم تسأله يومًا عن زوجته أو
إخوانها، وفي يوم غلبها الفضول وفي وقت الاستراحة كما اعتادت منذ مدة
ذهبت لتقضيها مع والدها، وهناك سألتها، قائلة:

- هي ماما عاملة إي؟

حينها زاغ بصر والدها ورأت حزن عميق بقلبه، وقال:

- تعيشي أنت يا بنتي...

أدركت سارة ما يقصده والدها ورجم ما فعلته معها زوجته، شعرت بالحزن
الشديد لفقدانها، وبعدها عنها بتلك الفترة، وتابع الأب حديثه قائلاً:

- اتوفت من سنتين بعد ما عملت حادثة وفضلت راقدة 3 شهور...

- البقاء لله...

قالتها بحزن حقًا، وحينها أمسك والدها بيدها قائلاً:

- عارفة قبل ما تموت بأيام قالت إي؟

قضبت سارة حاجبها تعجبًا، وانتظرت والدها يكمل؛ فتابع قائلاً:

- كانت معرفاني أنك مش بتتصلي، وأنها في مرة جات عندك وطرديتها، كانت بتكرهني فيكي، وبتحوشني عنك في نفس الوقت، وأنا مكنتش أعرف وزى الأهل كنت بدعيها على طبيعتها، وبدعي عليك وبكرهك كل يوم عن الثاني على قسوتك، وأنتك إزاي نسيينا! كنت بقعد أكلم نفسي يا سارة، لحد ما بقاش عندي بنت اسمها سارة... شعرت سارة بذلك الحديثة كالصفعة القوية على الوجه وأدمعت أعينها دون قصد، وتابع والدها:

- مفهمتش كل حاجة غير وهي عالسرير قبل ما تموت، عرفنتي كل اللي عملته عشان متكونش شايلة السر دا معاها بعد وفاتها، ومبقتش عارف أغضب منها ولا أجاريها، وبان عليا زعلي وهمي، وقالت ندر عليها لو فاقت هتجيبك لحد عندك وتصلحك، ولو ماتت فوصيتها ليا أخليكي تسامحها وتسامحيني، بس أنا مبقتش عارف إزاي أكلمك بعد كل السنين دي، لحد ما جيتي أنت يوم ما ساعدتيني، وحسيت أنك ممكن تديني فرصة كمان...

رأى والدها الأدمع بأعينها، وبتردد اقترب منها واحتضنها ولأول مرة بحياتها تشعر بحنان والدها يفيضها، ويهون عليها أنقل ما عرفته بحياتها، وتابع والدها وهو يمسد على حاجبها بحنان:

- سارة صدقيني أنا اتغيرت، وعرفت ازاي كانت بتعاملك، وعرفت ازاي لعبت في دماغي، الغضب عماني والشدة قوة قلبي، ومعرفتش قيمتك غير متأخر، معرفتهاش غير بعد فوات الأوان...
وبعد كل ما قاله لها والدها قررت أن تسامحه، فكم من أب لها بالحياة كي تخسره! وقالت من كل قلبها:
- مسمحاك يا بابا...

ومرت سنوات عدة أنهت فيهم سارة دراستها بالكلية واجتهدت ودرست الماجستير ثم الدكتوراه وكرثت حياتها لابنتها الجميلة حبيبة، والدها العجوز الذي لازم البيت، وانتقلت سارة للمعيشة في منزل بعيد كل بعد عن منزل مروا، بل حي مروان ذاته، وباعت المنزل وبعد مفاوضات كثيرة رضي بأخذ نصف الأموال التي ربحتها من بيع المنزل، وأخذت سارة معها والدها وأخواها، الذين كبرا وأصبحا بالجامعة...

أما رقية ففي العام الأخير لها خُطبت خطوبة شرعية وتزوجت بعد التخرج و عام الامتياز، وكم كان يوم سعيد جداً وجميل ومبهج، ومع كل تلك المشاعر كانت توجد سحابة حزن صغيرة، فجميع من بالحفل يعلم أن رقية وزوجها سيسافران للخارج ويستقران هناك، وكم أحزن هذا سارة كثيراً، ولكنها تمننت لهم حياة سعيدة...

وناقشت سارة رسالة الدكتوراه الخاصة بها، وتم اعتمادها أخيراً وقبولها بعد سنوات من الدراسة المرهقة، وفي ذات اليوم راودتها فكرة السفر والعمل خارجاً، وقررت أن تسعى لذلك فعلاً...

ما آخر سارة على سفرها هو والدها، فقد جاءته سكتة قلبية مفاجئة، ووقد بالمشفى أيام ثم توفي، وكم قسم ذلك ظهر سارة وأبكاها!

ولم تستطع لا هي ولا أخواها أن يقفوا على أرجلهم بسهولة، وبعد أشهر من الحداد تابعت أوراق السفر، وقد كان موت والدها كفيلاً؛ للهرب من بلدها كلها، وفوراً...

وسافرت سارة وحدها أولاً على وعد أن تحتل مصاريف إخوانها وتأخذهم معها بالوقت المناسب، وهناك اكتشفت عالماً جديداً كلياً عن عالمها، مختلف في كل شيء حتى في دراستهم، وأدركت أن عليها أن تبدأ تعلم كثير من الأشياء من جديد، ولكنها لم تستسلم...

والآن بعد خمسة عشرة عاماً من أول يوم لسارة بكلية الطب ها هي تعمل بقسم النساء والتوليد بوحدة من أفضل مستشفيات الولايات المتحدة، بالطبع لن يتم ذكر اسم أي معلم من المعالم... وكما ترون لم يحالف الحظ سارة في تخصص جراحة القلب ووجدت نفسها في تخصص النساء والولادة، ولكنها لم تستسلم، وكما ترون لقد أثبتت لنفسها وللعالم أن الانسان يستطيع أن ينجح فيما لم يختاره هو، لأن ما اختاره له هو الله...

ومع تعمق سارة في الدراسة واختلاطها مع سوق العمل وجدت أن هذا أفضل من أي شيء يمكن أن توفق فيه، فمع كل ولادة جديدة، ومع أول بكاء من طفل يبتسم ثغر العشرات من الأهل والأقارب، وترى سارة السعادة بادية في أوجه الجميع، تشعر أنها قد ملكت العالم كله حينما ترى أم وأب يحتضنون أبنائهم في سعادة...

في بداية عملها بالمشفى كان يوجد اضطهاد واضح لهان فهي فتاة عربية مسلمة ومحجبة، كم كانوا يحذرون منها ويتنمرون عليها، ويسئون لها بغير وجه حق، لم يكن جميع الأطباء والمرضين ولكن الكثير منهم كان هكذا، وأكثرهم طبيب يدعى "ايدن" كان أكثرهم هجوماً وتحريصاً على سارة، وكان يحاول أن يقنع كل من بالمشفى بأنها تشبه الإرهابين، وأنها إرهابية قادمة لتفجر المشفى، هذا ما وصل لمسامع سارة، قال الكثير والكثير من

خلفها، وخاض في عرضها ونامت ليالي كثيرة حزينة، ليس فقط بسبب غربتها، وبالحا المشغول على ابنتها المراهقة حبيبة، وإخوانها، بل ما تتعرض له يومياً بالمشفى، صادف أنها كانت في رمضان وهي وحيدة، وذلك زاد من حزنها، وشعورها بالوحدة، فكرت مراراً في أن تعود أدرجها، وما كان يربط على قلبها أنها سعت كثيراً لأجل كل هذا، هل ستستسلم الآن؟ وفي ذات يوم ذهبت لصلاة التراويح حينما وجدت مسجد صدفة في حي ليس بقريب، ولكنها كانت سعيدة جداً بوجوده، وبصلاتها التراويح، وبعد الصلاة كان الشيخ يخطب في الناس خطبة صغيرة مفادها، أن نعامل كل إساءة حولنا بالحسنى، وسنرى التغيير إن شاء الله...

حينها فكرت وقررت سارة أن تبدأ بتوعية من حولها، وبدأت بأكثر من يعترضها وهو ايدن، قائلة له ذات يوم باللغة الإنجليزية:

- أنا لا أعلم ماذا رأيت مني لتتحدث عني هكذا، ولكن أنا متأكدة أنك لا تعرف أي شيء عني أو عن ديني، تفضل هذا الكتاب فلتقرأه؛ لتعلم قليلاً عنا، وهنا أقصد عني أنا أو أي مسلم ستقابله...
- ماذا! ولما أريد أن أعرف عنكم، بعض التفاهات، يكفيني ما أعرفه عنكم ومقتنع به...

ولكنها أصرت على إعطائه له، ووضعتة على المكتب قائلة:

- إنها هدية مني، أرجو أن تعجبك...

ومرت الأيام وسعت سارة في أن تحضر إخوانها إليها بعد أن أنهوا الجامعة، واستمرت سارة في عملها وتعلمها كل يوم شيء جديد، واستمرت في إعطاء من حولها كتباً يقرأونها، وخصوصاً "ايدن" الذي أصبح يسألها عن الكتب بنفسه، بل لم يعد يتهم عليها ولا يتحدث من خلفها، بل تفاجأت حين قيل لها أنه دافع عنها... وفي ذات يوم أعطته القرآن بطلبه، وبعد شهرين سعياً في قراءته، أتى المشفى يبكي وأتى لمكتبها يقول:

- أريد أن أصبح مسلم يا سارة، لقد قرأت كل الكتب التي أعطيتها لي، وقرأت القرآن... كنت أشعر أن هناك شيء ما بقلبي وروحي ينقصني، لم أشعر أن قلبي سليم إلا عندما قرأت في هذا الدين، لقد كنت طيلة حياتي ملحد (غير مؤمن بالله) ولكن هذا الدين غير بداخلي الكثير من الأشياء، أتيت لك قبل الجميع كي تسامحيني على أخطائي من قبل، وأن تعلمي أنك السبب في هدايتي، وأن أبشرك بدخول الإسلام وأدعوك لحضور نطق شهادتين بالمسجد إذا سمحتي...

كان بداخل سارة الكثير من المشاعر وفرحة كبيرة ابكتها، ووافقت أ، تراه وهو يشهر إسلامه بالجامع وذهبت ورأته وهو يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وغير اسمه وأصر على اسم محمد، وماذا سيجد أفضل من اسم محمد ليختاره!

وكانت تشعر سارة أنها في حلم جميل وبشرى رائعة، ولم تصدق بخطوات بسيطة مثل التي فعلت أدت إلى بيان طريق شخص، وتغيير حياته، شكرت ربها كثيرًا، وبتلك الليلة لم تبرح سجادتها شكرًا لله...

ومؤت أيام وبعد شهر تقريبًا من ذلك الحدث، كانت سارة بعملها ويناظرها الكثير دون سبب، بل ازدادت نظراتهم لها حين أسلم "ايدن" ولكن نظراتهم في ذلك اليوم كانوا كأنهم يبتسمون لها، يعلمون شيء لا تعلمه، وفي الاستراحة علمت المفاجأة حين دلفت غرفة انتظار تعلم أنها فارغة، وهناك فرقعوا الأشياء الملونة، ورأت أمامها محمد راعع على ركبة واحدة ويقدم لها خاتم، وهو يقول:

- لن أجد فضل منك يا سارة لتكلمي معي باقي حياتي، يا من أنرت قلبي بعد ظلمته، أريدك أن تنيري حياتي بوجودك... هل تقبلي الزواج بي؟

لم تصدق سارة نفسها ووافقت في فرحة أمام الجميع، ولكن بعد أن احتفل الجميع وانفض الجمع، وبقياً بمفردهما، أخبرته كل شيء عاشته، وتفاجأت من إجابته:

- لا أفهم لماذا تخبريني كل ذلك؟ كل ما بالماضي فهو في الماضي، لا يخصني سوى سارة اليوم والمستقبل، وإن كنتي تخبريني كي أخبرك عن الماضي خاصتي، فاعذريني لن أخبرك شيئاً عنه، لأنني أخرج كثيراً حين تذكره، وأخشى من هربك مني بعد ما ستسمعينه...

ضحكت سارة وقالت:

- أنت أصبحت صفحة بيضاء حين أسلمت، وهذا يعني أن الله قد محى عنك خطاياك قبلاً...

- حقاً! إذن يمكن أن أحكي لك عن الماضي أي منذ شهر من الآن، يا بطلتي...

- بطلتك!

- نعم ما قلته لي لم يزيدني سوى فخر بك، وأن أعلم كم أنك بطلة...

شعرت سارة بالحرج كثيراً، وابتسمت في رضا...

أكتب لكم تلك القصة بعد مرور خمس سنوات من زواج سارة، وأنجبت سارة ولد وبنت (نوح ورقية)، وها هي سارة تسلمت نتيجة تحاليلها واكتشفت أن الله يختبرها من جديد، ها هي سارة محاربة سرطان مرة أخرى...

مع تحياتي. حبيبة